4

سلسلة

مَوَازِينُ الْقُرْآنِ

قراءة قرآنية تعيد وزن الأشياء

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾

[فاطر: 6]



مركز الدراسات والبحوث
جامعة ابن كثير الدولية

بيانات النشر والحقوق

إصدار: مركز الدراسات والبحوث – جامعة ابن كثير الدولية

السلسلة: موازين القرآن.

اسم الكتاب: إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ؟

رقم الكتاب في السلسلة: الرابع.

الطبعة الأولى: 1448هـ / 2026م

© جميع الحقوق محفوظة لمركز الدراسات والبحوث – جامعة ابن كثير الدولية.

هذا الكتاب متاح بموجب ترخيص المشاع الإبداعي نسب المصنف – غير تجاري – منع الاشتقاق 4.0 دولي (ND 4.0-NC-CC BY).

يُسمح بتحميل الكتاب ونسخه وتوزيعه وإعادة نشره وطباعته للأغراض غير التجارية دون إذن مسبق، بشرط المحافظة على نسبته إلى أصحابه، وعدم نشر نسخ معدلة أو مترجمة منه.

ويرحب المركز بطلبات طباعة هذا الكتاب ونشره لأغراض تجارية، شريطة الحصول على إذن كتابي مسبق من المركز، مع المحافظة على النص كاملًا دون تعديل أو حذف أو إضافة، ونسبته إلى أصحابه، ما لم يُتفق كتابةً على خلاف ذلك.

رابط الترخيص https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/deed.ar

النسخة الرسمية المعتمدة للكتاب:

https://www.ibnkathir-edu.org/ar/research-center/books/n-alshytan-lkm-aado-fatkhthoh-aadoa

إعداد السلسلة

مركز الدراسات والبحوث — جامعة ابن كثير الدولية

الإشراف العلمي على المركز

أ.د. عبدالله بن مبارك آل سيف

الفريق العلمي للمركز

د. عبدالله سالم باهمام

د. صهيب لموح

د. شادية عبدالله بابكر

إسلام موسى

عادل بافرج

المراجعة والتحكيم العلمي

يراجع المركز إصداراته بمحكمين خارجيين عند الحاجة.

كما شارك في إنتاج السلسلة وإخراجها عدد من فرق المركز الإدارية والفنية.

سلسلة موازين القرآن

عناوين الكتب في السلسلة

- **هو الله** | كيف يبني القرآن معرفة العبد بربه؟
- **إلا ليعبدون** | كيف يوحد القرآن وجهة الإنسان؟
- **زادهم هدى** | مسار القلب بين الهداية والزيغ والعودة
- **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًا** — هذا الكتاب
- **ولنبلونكم** | رحلة القرآن في كشف القلوب وبنائها
- **اعلموا أنما الحياة الدنيا** | كيف تنتفع بها من غير أن تستعبدك
- **وتحبون المال حبًا جمًا**
- **تلك الدار الآخرة** | الميزان الذي يعيد وزن كل شيء
- **قد أفلح المؤمنون**
- **وقولوا للناس حسنة**
- **كونوا قوامين بالقسط**
- **الذين نافقوا** | من فساد الباطن إلى إفساد الواقع
- **وتلك الأيام نداولها** | كيف يعلّمنا القرآن أن نقرأ حركة الأيام؟
- **إن وعد الله حق**
- **إن هذا القرآن**

بين يدي السلسلة والكتاب

مركز الدراسات والبحوث

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروعات مركز الدراسات والبحوث في جامعة ابن كثير الدولية، في إطار عنايته بالبحث والتأليف الشرعي، وبالمشروعات التي تصل هداية الوحي بأسئلة الإنسان الكبرى، وتقرّب أثر العلم من القلب والتصور والسلوك. وينطلق المركز في هذا المسار من أن النصوص الشرعية لا تُطلب لمجرد زيادة المعرفة، بل لتبني رؤيةً صحيحة، وتصحح الموازين، وتهدي الإنسان في علاقته بربه ونفسه والحياة من حوله.

ومن هنا تأتي العناية بالاستقراء، ودقة الفهم، وحسن البناء، وربط المعنى بالواقع من غير أن يتحول الوحي إلى شاهد تابع لفكرة سابقة، ولا أن يطغى التحليل البشري على دلالة النص وسلطانه.

سلسلة موازين القرآن

من هذه العناية جاءت سلسلة «موازين القرآن»: مشروع تأليفي يتتبع موضوعات كبرى كما يبنيها القرآن، ويستنير بالسنة في بيانها وتجسيدها وإتمام مشهدها، ثم يحاول أن يحول ما تكشفه النصوص إلى موازين يرى بها القارئ ربه ونفسه والحياة والناس والنجاح والخسارة، لا إلى معلومات متجاورة فحسب.

ولهذا لا تبدأ السلسلة بفكرة مكتملة ثم تستدعي الآيات والأحاديث لتزيينها، بل تحاول أن تبدأ من الوحي نفسه: تستقرئ نصوصه، وتراعي سياقاتها، وتجمع مشاهدها ومعانيها، ثم تسأل: ما الميزان الذي يبنيه الوحي في القلب؟ وكيف تتغير رؤية الإنسان وعبادته وقراراته إذا صار هذا الميزان حاضرًا فيه؟ فالقرآن هو الأصل الحاكم في بناء الرؤية، والسنة وحي مبين تأتي شارحة ومجسدة ومؤسسة للمعنى بحسب موضعها، ويظل التحليل والتأمل وربط النص بالنفس والواقع خادمًا لهذا الأصل، لا متقدمًا عليه.

والميزان في هذه السلسلة ليس شعارًا ذهنيًا، بل طريقة في النظر والعيش. قد يعرف الإنسان أن الآخرة خير وأبقى ثم يزن أكثر قراراته بالعاجل، ويعلم أن الرزق بيد الله ثم يعيش كأن الأسباب تملك مستقبله. لذلك تحاول كتب السلسلة أن تنقل القارئ من معرفة النص إلى رؤية الأشياء به، ومن فهم المعنى إلى معايشته، حتى يغلق الكتاب وفي قلبه ميزان يعود إليه بعد القراءة في خوفه ورجائه، وفي نعمته وبلائه، وفي اختياراته وعلاقاته وطريقه إلى الله.

هذا الكتاب

موضوع هذا الكتاب عدوٌّ أخبر الله الإنسان عنه قبل أن يلقاه، وكشف له أصل عداوته، وطرائق إغوائه، وحدود قدرته، وما تنتهي إليه وعوده. ومع ذلك قد يختل الميزان في النظر إليه من جهتين متقابلتين: فيُغفل أثره حتى كأن التحذير القرآني منه لا يغيّر شيئًا في رؤية الإنسان واختياراته، أو يُضخَّم حضوره حتى يصبح تفسيرًا لكل خاطر وزلة وخلاف، فينشغل القلب بالعدو أكثر مما ينشغل بربه.

ومن هنا يأتي سؤال الكتاب: ماذا يعني أن يقول الله ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾؟ كيف يكشف القرآن هذه العداوة؟ وأين يقعد الشيطان للإنسان؟ وكيف يعرض الباطل في صورة نصيحة أو وعد أو خوف أو زينة؟ وكيف تبدأ الخطوة قبل أن تصير طريقًا، ويمتد النزغ من القلب واللسان إلى ما بين الناس؟ ثم ما حقيقة سلطانه، وأين تقف مسؤوليته؟ ومتى يبدأ اختيار الإنسان ومسؤوليته؟

لا يسير الكتاب في طريق تضخيم الشيطان ولا في طريق تهوين خطره، بل يحاول أن يضعه في الموضع الذي وضعه فيه الوحي. فهو عدو يجب أن يُعرف ويُحذر، لكنه ليس قوةً تقهر العبد على المعصية، ولا يخرج شيء من أمره عن ملك الله وسلطانه. ولذلك ينتقل الكتاب من كشف العدو وطرائق دعوته إلى السؤال الأهم: كيف يتخذه المؤمن عدوًا فعلًا؟ بالتذكر حين تغيم الرؤية، والاستعاذة حين يقع النزغ، والعبادة التي تشغل القلب بالله، والرجوع بعد الزلة، والثقة بفضل الله وحفظه وعفوه.

وتنتهي الرحلة عند المشهد الذي تسقط فيه الزينة كلها، ويعترف العدو نفسه بعد أن قُضي الأمر: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾. لكن الكتاب لا يريد أن يترك القلب عند هذا الاعتراف، بل أن يسمعه الآن وهو ما يزال قادرًا على الاختيار، ثم يرده إلى الجهة التي ينبغي أن تستقر عندها العداوة كلها: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَٰهِ النَّاسِ﴾.

فالغاية ليست أن يخرج القارئ أكثر انشغالًا بالشيطان، بل أبصر بوعده وغروره، وأعرف بحدود سلطانه، وأشد مسؤوليةً عن اختياره، وأسرع رجوعًا إلى الله؛ حتى تكون معرفة العدو طريقًا إلى حفظ العبودية، لا منافسًا لها في القلب.

محتوى الكتاب

بيانات النشر والحقوق 2
بين يدي السلسلة والكتاب 4
مركز الدراسات والبحوث 4
سلسلة موازين القرآن 4
هذا الكتاب 5
القسم الأول 8
إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ 8
إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ 8
أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ 10
فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى 11
القسم الثاني 15
لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ 15
لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ 16
فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ 18
حَتَّى يَخْطِرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ 19
القسم الثالث 22
هَلْ أَدُلُّكَ؟ 22
إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ 23
هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ؟ 24
الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ 25
زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا 28
القسم الرابع 30
لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ 30
إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ 30
لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ 32
دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي 33

نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ 34
القسم الخامس 37
إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ 37
يَنزَغُ بَيْنَهُمْ 37
يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ 39
وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ 40
يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ 41
القسم السادس 43
مَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ 43
مَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ 44
بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا 45
إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا 46
القسم السابع 49
فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا 49
تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ 49
فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتَهِ 50
اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي 51
وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ 52
القسم الثامن 54
وَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ 54
وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا 54
قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ 57

القسم الأول

إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ

ليس أول ما يضعه القرآن في قلبك عن الشيطان أنه قوي، ولا أنه قريب، ولا أنه يعرف مداخل الإنسان. في سورة فاطر يسبق إعلان العداوة أصلٌ أعلى منها وأثبت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۝ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: 5-6]. فالعدو لا يدخل المشهد أولًا؛ يدخل بعد أن يثبت الله الحقيقة التي سيُوزَن بها كل ما يأتي منه: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾. ومن هنا ينبغي أن تبدأ معرفة المؤمن بعدوه، لا من الفزع منه، بل من الثقة بمن كشفه، ولا من مراقبة حركاته وحدها، بل من ميزانٍ يسبقها ويعلو عليها.

هذا الترتيب في السياق بالغ الدلالة. فالإنسان قد يعرف أن شخصًا عدوه، ثم يصدقه حين يخوفه، أو يطمئن إلى قوله حين يوافق رغبةً في نفسه، أو يتبع أثره حين يبدو له الطريق قريبًا ومريحًا. ولهذا لم يقف الخطاب عند الخبر: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾، بل أعقبه بالتكليف: ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾. فالمعرفة إذا بقيت ساكنة في الذهن لم تغيّر شيئًا؛ وإنما تصير عداوةً حقيقية حين تدخل في وزن القول والخوف والرغبة والقرار، وحين يستقبل المؤمن ما يأتي من جهة عدوه وهو يعلم من صاحبه وإلى أين يريد أن يقوده.

إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ

يعيش الإنسان بطبيعته قريبًا مما يراه ويحسه. تضغط عليه خسارة حاضرة أكثر من مآل بعيد، ويشدّه نفع عاجل أكثر من حقيقة لا تزال وراء الطريق، ويملأ الخوف من غدٍ مجهول مساحةً واسعة من القلب وإن كان الوحي قد كشف له ما هو أصدق وأبقى. ومن هنا تأتي كلمة القرآن فترد الأشياء إلى أوزانها: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾. فالحق ليس هو الأشد حضورًا أمام العين، ولا الباطل باطلًا لأنه يظهر دائمًا في صورة منفرة. قد يكون الشيء جميل الصورة، قريب المنفعة، شديد الإلحاح، ثم يكون ما كشفه الله عن حقيقته ومآله على خلاف ما توحي به اللحظة.

ولهذا جاء بعد إثبات الوعد مباشرة: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: 5]. الغرور لا يبدل حقائق الأشياء في ذاتها؛ وإنما يفسد وزنها في عين الإنسان. يضخم القريب حتى يحجب البعيد، ويجعل جزءًا من الصورة كأنه الصورة كلها، ويمنح اللذة العاجلة حضورًا يحجب تبعتها، أو يجعل الخوف الآني أكبر من الوعد الذي جاء من عند الله. ثم تسمّي الآية التالية العدو الذي ينبغي أن يُتخذ عدوًا، فتدخل معرفة الشيطان من أولها تحت هذا الميزان: ليس كل ما يبدو لك شديدًا أو مغريًا أو نافعًا هو الحقيقة الكاملة، والعبد لا يزن بمشهد اللحظة وحده بعدما كشف الله له ما وراءها.

وتتجلى هذه الموازنة في قرار عملي حين يقول الله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 268]. فليس المستقبل الذي يصوره الخوف هو المستقبل الوحيد الذي يدخل القرار؛ هناك وعد الله، ومن أول الطريق ينبغي أن يكون معلومًا أي الوعدين أحق بأن يملأ القلب.

وقد يأتي أثر العدو في وعد صريح كما في هذه الآية، وقد يأتي في تزيين أو نزغ أو صد أو تخويف أو وسوسة؛ ولكل لفظ دلالته وسياقه، فلا تُردّ هذه الأفعال كلها إلى اسم واحد. غير أن المؤمن يتعلم من هذه الموازنة ألا يسلّم الحكم للصورة القريبة وحدها، بل يسأل نفسه: ما الذي أراه الآن؟ وما الذي كشفه الله عن حقيقة هذا الطريق وحدوده ونهايته؟ وحين يثبت هذا الميزان في القلب، تصبح معرفة الشيطان معرفةً ترد الإنسان إلى الوحي كلما ضغطت عليه اللحظة أو أغرته، لا معرفةً تستغرقه في الغيب الخفي.

ومن هنا يظهر الفرق بين من يعرف أن الشيطان عدو، ومن اتخذه عدوًا فعلًا. الأول قد يحفظ الآية ثم يعيش تحت سلطان التخويف والتزيين إذا حضرا، أما الثاني فتدخل العداوة في طريقة استقباله: لا يعطي كلام العدو وزنًا منفصلًا عن حقيقة صاحبه، ولا يجعل قوة الإحساس دليلًا على صدق ما يوحي به، ولا يسمح لجمال الصورة أن يحجب عنه المآل الذي كشفه الله. ليس المطلوب أن يصير المرء خبيرًا بكل مسالك الشيطان قبل أن ينجو؛ يكفي في أول الطريق أن يعرف أن ربه لم يتركه بلا ميزان، وأن ما يخبره الله به أصدق من كل ما تضغط به عليه اللحظة.

ولهذا يحسن أن تبقى هذه الكلمة في مقدمة المعرفة كلها: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾. قبل أن تسمع طويلًا كلام العدو، اعرف من لا يخلف وعده. وقبل أن تتعلم كيف يزيّن، اعرف أن الحقيقة لا تتغير بزخرف العرض. وقبل أن تخاف من اتساع مكره، اعرف أن الذي أخبرك عنه هو ربك، وأن كشفه لك بعض هدايته، لا بابًا إلى أن يمتلئ قلبك بعدوك.

وهنا يحسن أن يمكث القلب قبل أن يتابع وصف العدو: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾. ليست هذه جملة تمهيدية تجاوزتها السورة إلى موضوع الشيطان؛ هي السقف الذي يبقى فوق الموضوع كله. حين يضيق بك حاضر، أو يلمع أمامك ما لا ترضاه لله، أو يصير الغد كتلةً من الخوف، لا تحتاج أولًا إلى أن تعرف كل الطريق الذي سيأتيك منه العدو؛ تحتاج أن يعود إلى قلبك من لا يكذبك في الغيب: الله. وإذا استقر صدق الوعد في القلب، صغر سلطان الصورة العاجلة وإن لم تختفِ.

أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ

حين يعيد القرآن المؤمن إلى بداية العداوة، لا يبدأ بآدم وهو يخطئ، بل بإبليس وهو يعصي. قال الله له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: 12]. لم يكن الأمر ملتبسًا ولا الطريق مجهولًا؛ فالآية تردّه إلى أصل المسألة: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾. ومع ذلك جعل إبليس تقديره لنفسه في مواجهة الأمر، ورأى ما ظنه فضلًا في أصل خلقه حجةً على ترك الامتثال.

وتكشف جملة ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ شيئًا من حقيقة العدو قبل أن يظهر لآدم في صورة الناصح.

فهذا الذي سيقسم لآدم وزوجه ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: 21] قد كشف القرآن موقفه قبل أن ينقل نصحه. عصى أمر ربه، واستكبر، ثم لم يقف الأمر عند معصية تخصه، بل انتقلت إلى عداوة معلنة لبني آدم. قال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 16-17]، وقال في موضع آخر: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: 39-40]. وفي سورة ص يقسم: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: 82-83].

بهذا البيان لا تبقى عداوة الشيطان استعارة وعظية ولا شعورًا غامضًا. الوحي يخبرك أن لها أصلًا، وأن صاحبها أعلنها، وأنها لا تبدأ يوم تضعف أنت ولا تنشأ لأنك شخص كثير الخواطر؛ لقد سبقت تجربتك الفردية كلها. وهذه المعرفة مهمة لأنها تمنع سذاجة استقبال ما سيأتي منه. من الخطأ أن يعرف الإنسان تاريخ العداوة ثم يستقبل عرض العدو في لحظته كأنه كلام محايد لا صاحب له ولا غاية وراءه.

لكن القرآن، في الوقت نفسه، لا يسمح للعداوة أن تتحول في القلب إلى صورة قوة مطلقة. فبعد قسم إبليس على الإغواء كان قد استثنى عباد الله المخلصين، وبقي المشهد كله تحت مشيئة الله وملكه وحكمه. فالعدو حقيقي، وإصراره على الإغواء حقيقي، لكن إعلان الإغواء لا يجعله مالكًا للإنسان، ولا يجعل دعوته قدرًا قاهرًا. منذ أصل القصة يبقى سلطان الله فوق المشهد، ويبقى الإنسان عبدًا مكلّفًا لا أسيرًا لعدوه.

ولهذا يأتي سؤال سورة الكهف شديدًا في بساطته: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: 50]. ليست القضية أن الشيطان موجود في العالم فحسب، بل أن معرفة عداوته ينبغي أن تغيّر موضع الطاعة والاتباع والثقة. كيف يعرف المرء أن هذا عدو ثم يمنحه في لحظة الاختيار من الولاء العملي ما يناقض هذه المعرفة؟ ولهذا يجيء العهد في سورة يس صريحًا: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: 60-61].

ويجعل القرآن عداوة الشيطان ذات أثر تعبدي مباشر. فاتخاذه عدوًا ليس أن يكثر ذكره على اللسان، ولا أن يفتش المؤمن عن حضوره في كل خاطر أو حادثة، بل أن يرفض منحه ما يناقض حقيقة عداوته حين يأتي موضع الطاعة والاتباع. فالمعركة لا تُقاس بكثرة الحديث عن العدو، وإنما بمكان هدى الله من القرار حين تعرض دعوته أو يشتد ضغطه.

وبذلك يكتمل التعريف الأول بالعدو: الذي قال ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ هو نفسه الذي أعلن أنه سيقعد لبني آدم على الصراط، ويزيّن لهم، ويدعوهم. غير أن القرآن لا يترك النظر معلقًا بإعلان العداوة وحده؛ فهو ينقلنا إلى أول مواجهة لنرى ماذا صنعت الوسوسة بالإنسان، وماذا صنع الله بعبده بعد الزلة. وهناك تظهر حقيقة لا تقل أهمية عن أصل العداوة: أن أول سقوط في تاريخ البشر لم يجعل الإنسان ملكًا لعدوه، ولم يغلق عليه طريق الرجوع إلى ربه.

فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى

قال الله لآدم: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: 117]. لم يدخل آدم أول مواجهة بلا تعريف ولا تحذير؛ سُمّي له العدو قبل التجربة، وكُشف له أثر

طاعته لعدوه بأن يخرجه من الجنة. ثم يذكّره السياق بما هو فيه من نعمة مكتملة: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [طه: 118-119]. وبعد هذا كله تأتي الوسوسة في صورة عرض يلمع بما ليس في يد آدم: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه: 120].

في هذا المشهد يلتقي الميزان كله: نعمة حاضرة عرّف الله حقيقتها، وتحذير صريح من العدو، ثم عرض يغيّر بؤرة النظر إلى شيء آخر؛ إلى الخلد والملك الذي لا يبلى. لم يقع أول خداع لأن آدم تُرك بلا هدى، بل وقع والهدى حاضر والتحذير سابق، وهذا أدق في تصوير مسؤولية الإنسان وحاجته معًا. فالمعرفة لا تجعل المرء معصومًا، واتخاذ العدو عدوًا لا يكتمل بحفظ أوصافه، بل يحتاج إلى عبودية متجددة تبقى فيها كلمة الله أثقل من ضغط اللحظة وأصدق من بريق العرض.

وقع ما حذّر الله منه: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: 121]. لا يخفف القرآن العبارة؛ يسمي الفعل عصيانًا ويذكر الغواية. وجود الشيطان في القصة لم يمح مسؤولية آدم، والوسوسة لم تتحول إلى عذر يلغي معنى المعصية. وهكذا يجمع الوحي في مشهد واحد بين فعل العدو ومسؤولية الإنسان، فلا يُنكر أثر الشيطان ولا يُحوَّل الإنسان إلى ضحية بلا اختيار.

غير أن القرآن لا يترك القصة عند هذه الجملة. تأتي بعدها مباشرة: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: 122]. الزلة حقيقية، والعصيان لم يُمح من السرد، لكن العدو لم يملك ما بعد الزلة. رب آدم هو الذي اجتباه، وهو الذي تاب عليه، وهو الذي هداه.

وليس هذا مجرد حسن ختام لأول قصة؛ إنه تعريف بالرب الذي ستواجه عدوك وأنت عبده. إذا كان الشيطان يريد أن يفتح من الزلة طريقًا، فإن الله يفتح من قلب الزلة باب الاجتباء والتوبة والهداية.

ما أضعف قراءة العداوة إذا ملأت القلب بإبليس ومرّت سريعًا على كلمة ﴿رَبُّهُ﴾. آدم لم يرجع إلى فراغ، ولم يجمع نفسه وحده بعد السقوط؛ رجع إلى رب اجتباه وتاب عليه وهداه. وكل معرفة بالعدو لا تزيدك افتقارًا إلى هذا الرب تبقى ناقصة عن المقصد الذي تقود إليه القصة. وبذلك تكسر أول قصة

للإنسان وهمًا خطيرًا: أن انفتاح باب الذنب يعني أن الشيطان صار سيد ما بعده. لقد وقع السقوط، ثم جاء الاجتباء والتوبة والهداية من الرب الذي لم يترك عبده لعدوه.

وفي سورة البقرة يضيف القرآن لمسة لا ينبغي أن تمر سريعًا: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 37]. حتى كلمات الرجوع تلقاها آدم من ربه. فالعبد لا يخرج من أثر العدو بمجرد قوة داخلية يستجمعها وحده؛ باب الرجوع نفسه من هداية الله ورحمته. أصل النجاة هدى يأتي من الله، والعبد يقبله ويرجع به إلى ربه، فلا تتحول مواجهة الشيطان إلى اعتماد على ذكاء الإنسان ومهاراته وحدها.

وفي الأعراف يأتي صوت آدم وزوجه بعد سقوط الغرور: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23]. يجمع الدعاء بين أمرين لا غنى لأحدهما عن الآخر: مسؤولية لا تُدفع، ورحمة لا يُيأس منها. لم يقولا إن الشيطان حملهما على الفعل فلا لوم، ولم يجعلا أثره مخرجًا من نسبة الظلم إلى النفس؛ قالا: ﴿ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾. وفي الوقت نفسه لم يتحول الاعتراف إلى قنوط، بل إلى توجه مباشر إلى الله: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

ويعلّم هذا المشهد أن لحظة الرجوع بعد الزلة ليست بالضرورة لحظة تشريح طويل لما وقع. قد يفيد الإنسان أن يعرف موضع ضعفه وكيف دخل عليه الخطأ، لكن ذلك لا ينبغي أن يحجب الطريق الأقرب الذي سلكه آدم وزوجه: اعتراف بالظلم، وافتقار إلى المغفرة والرحمة، وعودة إلى الله. فمعرفة العدو لا تبلغ غايتها إذا أبقت القلب مشغولًا به بعد المعصية حتى تؤخر رجوعه إلى ربه؛ إنما تبلغ غايتها حين تعين على قطع أثره والعودة إلى الهدى.

ثم تنتهي قصة الهبوط بما يحدد معركة الإنسان في الأرض تحديدًا أدق من أن تكون مجرد مطاردة بينه وبين الشيطان: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: 123]. وفي سورة البقرة: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38]. العداوة باقية، ولكن الذي يبني مستقبل الإنسان في الآيتين ليس مجرد التحذير من العدو؛ بل مجيء الهدى من الله واتباعه.

ويستقر السؤال في موضعه الصحيح: ليس هل أصبحت أذكى من الشيطان، ولا هل أحطت بكل مداخله، وإنما ما مكان هدى الله في قلبك حين تأتي الدعوة والوسوسة والخوف والزينة؟ فالوحي لم يعلّق السلامة على كثرة المعرفة بالعدو، وإنما قال: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾. ومعرفة الشيطان نفسها جزء من هذا الهدى؛ يكشف الله لعبده من شأن عدوه ما يحتاجه حتى لا يلتبس عليه الطريق، ثم يرده إلى الأصل الذي عليه النجاة: اتباع هدى الله.

ومن أول قصة للإنسان تجتمع ثلاث حقائق من غير تناقض: عدو حقيقي يعمل على الإغواء، وإنسان مسؤول يزل باختياره، ورب تواب رحيم لا يترك عبده إذا رجع إليه. فإذا غاب أثر العدو بهت التحذير القرآني، وإذا غابت مسؤولية الإنسان صارت العداوة ذريعة تبرئه من فعله، وإذا غابت رحمة الله انقلبت المعرفة إلى خوف وقنوط. أما القرآن فيجمع هذه الحقائق في مشهد واحد، فلا يطغى بعضها على بعض.

ولا ينبغي أن تستقر قصة العداوة في القلب بصورة إبليس وهو يقول: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، ولا بصورة آدم عند الشجرة وحدها. النهاية التي اختارها القرآن أوسع: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾، ثم ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾. فالخبر العظيم في بداية قصة العداوة ليس فقط أن لك عدوًا قديمًا، بل أنك لست متروكًا له؛ لك رب كشفه لك، وحذرك منه، وفتح باب التوبة بعد الزلة، وجعل الهدى بين يديك في الطريق كله. ومن هذا الموضع الصحيح تبدأ عداوتك للشيطان: لا بأن يكبر هو في قلبك، بل بأن يكبر عندك صدق الله، وهدايته، ورحمته، ووعده.

القسم الثاني

لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ

وإذا عُرف العدو وعُرفت غايته، بقي أن يُعرف أين ينتظر الإنسان في طريقه. ومن التصورات التي تضعف عداوة الشيطان في القلب أن يُبحث عنه عند أبواب الفاحشة وحدها؛ كأن طريق الطاعة يقع خارج ميدان المواجهة، وكأن الإنسان إذا أراد خيرًا فقد تجاوز الموضع الذي يقعد فيه عدوه. لكن إبليس حين أعلن عداوته لم يقل إنه سينتظر بني آدم حيث يشتهون المعصية فحسب، بل قال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 16-17]. وفسر الطبري الصراط بأنه طريق الله القويم، دينه الحق، الإسلام وشرائعه؛ ورأى أن اللفظ لا يختص بطريق من طرق الطاعة دون غيره، مستدلًا بأن الشيطان لا يألو عباد الله صدًّا عن كل ما كان لهم قربة إلى الله. فالمشهد منذ بدايته لا يضع العدو على هامش الطريق، بل على طريق السير نفسه.

وتستحق الكاف في ﴿صِرَاطَكَ﴾ أن يبقى عندها القلب قليلًا. الصراط ليس ملكًا للعدو حتى يكون وجوده عليه علامةً أن الطريق صار له؛ هو صراط الله. الله هو الذي دعا إليه، وبيّن علاماته، ووعد بنهايته، ويعلم ما يعترض عبده فيه. قد يقعد العدو على الصراط، لكن الصراط لله؛ وغايته العبودية هنا أن تثبت على هدى لله، فإذا اثقلت عليك الطاعة لم تجعل ثقلها حكمًا على الطريق، بل رددت قلبك إلى ما أمر الله به، تمضي إلى الخير وإن ثقل، وترد قلبك إل الصلاة إذا شرد، ولا تعل مقامة الطريق سببًا لترك الطريق. ليست النجاة في أن تختفي المقاومة، بل في أن يبقى هدى الله أثقل منها في قلبك؛ وهذا وحده يغيّر شعور المؤمن بالمقاومة: أنت لا تشق سبيلًا مجهولًا في أرض العدو؛ أنت تمضي في صراط ربك، والعدو طارئ عليه.

وإذا ثقل السير فلا تجعل الثقل يغيّر اسم الطريق. كم من طاعة بقيت طاعةً وهي شاقة، وكم من حق بقي حقًّا وهو يكلف صاحبه شيئًا يحبه. المشقة وصفٌ لما تشعر به في الطريق، وليست حكمًا على الطريق نفسه. وحين يقول الله لك: هذا صراطي، لا يعود ثقل الخطوة قادرًا وحده على أن يسمي لك وجهتك.

وهذا يغير السؤال الذي يواجه به المؤمن يومه. فليس كل ما يريده الشيطان أن يفتح أمامك باب شر؛ قد يريد أن يغلق باب خير، أو يثقل السير إليه، أو يردك عنه بعد أن اتجهت نحوه، أو ينقص نصيبك منه

إذا دخلته. وقد تكون الفاحشة بعيدة عن المشهد كله، ويكون موضع العداوة صلاةً يريد الإنسان أن يقوم لها، أو طاعةً يعرف فضلها، أو حقًّا بان له ثم وجد في اتباعه كلفة. لذلك لا تكفي اليقظة عند حدود الحرام؛ من تمامها أن يبصر الإنسان ما يمكن أن يُصد عنه وهو يريد الله.

لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ

جاءت السنة بصورة تكاد تجعل هذا القعود مرئيًا. روى النسائي عن سَبْرة بن أبي فاكه رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه»؛ فقعد له بطريق الإسلام، ثم بطريق الهجرة، ثم بطريق الجهاد. وفي كل طريق لم يدعه إلى فاحشة، وإنما حاول أن يرده عن الطاعة التي وقف على بابها. عند الإسلام قال له: «تُسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك؟»، وعند الهجرة خوّفه فراق الأرض، وعند الجهاد صور له القتل وما يعقبه من فراق أهله وماله. فعصاه في المواطن الثلاثة: فأسلم، وهاجر، وجاهد. رواه النسائي [3134]، وقال الألباني: إسناده قوي متصل، وقد صححه جمع.

وقد لا تسمع في نفسك دعوةً إلى شر، بل تشعر فجأةً بثقل ثمن الخير. ما ستتركه حاضر ومسمّى، وما ستناله عند الله غيب لم تره بعد. في هذه اللحظة بالذات يُختبر الميزان: هل تجعل كلفة الطاعة هي كل القصة، أم تسمح لوعد الله أن يدخل المشهد؟ قد يبقى الفراق فراقًا، والخوف خوفًا، والتعب تعبًا؛ الإيمان لا يمحوها من الحس، لكنه يمنعها أن تنفرد بالحكم.

والعبد لا يمضي إلى الطاعة لأنه لا يشعر بالخسارة، بل لأنه رأى فوقها ما يستحق أن يمضي إليه. قد تحب ما تفارقه، وتخاف على نفسك، وتتعلق بما ألفت؛ ثم يكون صدق العبودية أن تقول بقلبك قبل قدمك: ما عند الله أحق أن يزن قراري من كل ما أراه الآن. هناك تبدأ الطاعة من موضع أعمق من مجرد القدرة على التحمّل؛ تبدأ من الثقة بمن دعا ووعد.

في هذا الحديث معنى أعمق من مجرد أن الشيطان يثبط عن الخير؛ فهو لا يكرر حجة واحدة في كل مقام. الذي يصلح لإيقاف الإنسان عند الإسلام غير الذي يصلح عند الهجرة، وما يثقل النفس عند الهجرة غير ما يخيفها عند الجهاد. الموروث له ثقله، والأرض لها تعلقها، والنفس تخشى الموت والفقد. لم يحتج الشيطان في هذه الصور إلى أن يجعل الشر محبوبًا؛ كفاه أن يجعل كلفة الطاعة تملأ المشهد حتى تبدو العودة إلى المألوف أهون.

والحديث نفسه يمنع أن نقرأ هذه الكلفة قراءة سطحية. ففراق المألوف في الإسلام حقيقي، وترك الأرض في الهجرة حقيقي، واحتمال القتل في الجهاد حقيقي؛ ليست كل مادة التخويف وهمًا لا أصل له. إنما موضع الخلل أن تتحول حقيقة جزئية قريبة إلى الحكم كله، وأن يُرى ما سيتركه الإنسان ولا يُرى ما

يمضي إليه. وهنا يلتقي هذا المشهد بميزان القرآن: العاجل لا يُنكر، لكنه لا يستقل بالوزن بعدما كشف الله المآل.

ولهذا ختم الحديث الطريق بعكس الصورة التي كان الشيطان يملأ بها اللحظة: من عصاه فسلك الإسلام والهجرة والجهاد كان على وعد من الله بالجنة. كان العدو يضع أمام العين ما سيفقده العبد في الطريق، والوحي يكشف له ما ينتهي إليه الطريق. ولم يعد السؤال عندئذ: هل توجد كلفة؟ بل: أيهما أحق أن يزن القرار، الكلفة التي أراها الآن أم الحقيقة التي كشفها الله عن نهاية السير؟

والعبد حين يترك مألوفًا لله لا يخرج إلى فراغ. الذي أمره هو الذي يعلم ما يفارق وما يخاف وما يبذل، ووعده بالجنة يجعل الكلفة جزءًا من طريق إليه لا نهاية الطريق. لا تزول المشقة من الحس، لكنها لا تبقى وحدها في القلب؛ يجاورها رجاء ما عند الله، فتتحول الطاعة من حساب ما أفقده الآن إلى سؤال أعظم: لمن أمضي، وماذا وعدني ربي في آخر الطريق؟

ويقترب هذا المعنى من حياة كل يوم، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ» [البخاري: 1142؛ مسلم: 776].

اللافت أن الجملة التي تصاحب العقد لا تحمل دعوة إلى معصية ظاهرة: «عليك ليل طويل فارقد». وهي توافق شيئًا حقيقيًا يحسه النائم؛ الليل باقٍ والجسد يريد الراحة. لكن السنة تكشف أن هذه ليست الصورة كلها، ثم تضع إلى جانبها طريقًا عمليًا لا يحتاج إلى مراقبة خفية ولا إلى جدل مع الخاطر: ذكر الله، ثم وضوء، ثم صلاة. وبعد الفعل ينقلب ما كان يبدو أثقل في البداية إلى نشاط وطيب نفس. فالراحة التي وُعد بها الجسد وهو على فراشه لم تكن وحدها الميزان، كما أن مشقة النهوض لم تكن حكمًا على مآل الطاعة.

والصباح مثال صغير، لكنه قريب من القلب. قد تكون المسافة بينك وبين طاعة تعرفها دقائق قليلة، ومع ذلك تبدو في أول اليقظة أثقل من ساعات كاملة. لا يتغير حكم الصلاة لأن الجسد يريد أن يبقى، ولا يصير ثقل القيام كشفًا عن أن الراحة خير لك. تقوم، تذكر الله، تتوضأ، تصلي؛ ثم تخبرك السنة أن النفس نفسها قد تصبح نشيطة طيبة. كم من شيء حكمنا عليه من أوله، ولو عبدنا الله فيه حتى نهايته لرأينا وجهًا آخر.

ولعل هذا من أهدأ دروس الحديث: لا تفاوض الكسل طويلًا وهو على الفراش؛ ادخل في الفعل الذي شرعه الله. الذكر خطوة، والوضوء خطوة، والصلاة خطوة، ومع كل خطوة ينكشف أن الصورة

التي ملأت أول اللحظة لم تكن الصورة كلها. أحيانًا لا يزول ثقل الطاعة قبل أن تبدأها؛ يزول وأنت تمضي فيها.

فالإنسان يتعب وتثقل نفسه وتتنوع دوافعه. لكن الوحي سمى مواضع بعينها، سمى مواضع بعينها لا نلغي لها أثر العدو، حتى تصبح الطاعة ميدانًا محايدًا، ولا نحول كل فتور إلى. وبين الجحود والمبالغة تتشكل يقظة أكثر اتزانًا: طريق الخير قد يُقاوَم، والمقاومة لا تجعل الخير شرًّا ولا تعطي الكلفة القريبة حق الحكم على الطريق كله.

وعند هذه النقطة يصبح قول إبليس ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أقرب إلى الحياة مما يبدو لأول وهلة. فقد يكون الصراط إسلامًا يخرج صاحبه من مألوف آبائه، أو هجرةً تفصله عن أرضه، أو جهادًا يهدده بفقد الحياة والمال، وقد يكون في صباح عادي قيامًا من فراش إلى وضوء وصلاة. تتغير المواطن، لكن جهة العداوة واحدة: أن ينقطع السير إلى الله أو يثقل حتى يتركه صاحبه.

فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ

إذا كان القعود يكشف موضع الاعتراض، فإن القرآن يسمّي في مواضع أخرى ما يفضي إليه هذا الاعتراض: الصد عن السبيل. قال الهدهد في خبر ملكة سبأ وقومها: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: 24]. وفسر الطبري التزيين بأنه تحسين الشيطان لهم عبادتهم الشمس وتحبيبها إليهم، والصد بأنه منعهم بهذا التزيين من اتباع الطريق المستقيم، سبيل الحق. في الآية ليست المشكلة في فعل باطل فحسب؛ هناك صورة داخلية للعمل حُسنت حتى صار الباطل مستساغًا، ثم جاء الصد عن السبيل ثمرةً لهذا التزيين.

وهذا يكشف وجهًا من وجوه الصد لا يحتاج فيه الإنسان إلى أن يكره الحق ابتداءً؛ يكفي أن يعجبه ما هو عليه حتى تضعف حاجته إلى الخروج منه. إذا صار الخطأ جميلًا في عينه، لم يعد يرى نفسه واقفًا أمام طريق يحتاج إلى تصحيح. ومن هنا تأتي خطورة أن يُترك الإنسان لمعياره الداخلي وحده؛ لأن أحد آثار الصد أن تختل الرؤية التي كان سيكشف بها أنه مصدود.

ويبلغ الصد صورةً أشد حين يقول الله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 37]. فالمصدود قد لا يشعر بأنه متروك على قارعة الطريق؛ قد يمضي وهو يحسب أنه يحسن السير. وهنا يظهر خطرٌ يتجاوز مجرد ترك فعل من أفعال الخير: أن يختل ميزان النظر نفسه حتى لا يعود الشعور الداخلي بالهداية شاهدًا كافيًا على تحققها.

وفي عاد وثمود يقول الله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: 38]. وقد فسر الطبري ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ بأنهم كانوا مستبصرين في ضلالتهم، معجبين بها، يحسبون أنهم على هدى وصواب، وهم على الضلال. وهذا أدق من أن نجعل الآية مجرد مدح لذكائهم ثم نقول إن الذكاء لا يعصم؛ فالقرآن يكشف مأساةً أشد: يمكن للإنسان أن يملك داخل ضلاله رؤيةً يؤكد بها لنفسه أنه على صواب.

وهنا يظهر معنى الميزان على نحو شديد الوضوح. إذا كان الشيء قد زُيّن حتى بدا حسنًا، وإذا كان المصدود قد يحسب نفسه مهتديًا، فلا يمكن أن يكون مجرد الإحساس الداخلي هو الحكم النهائي. لا بد من مرجع يكشف للإنسان ما لا تكشفه له نفسه عن نفسها. ولذلك لا يحمل هذا الباب المؤمن على الارتياب المرضي في كل ما يراه، وإنما يمنعه من تأليه نظره؛ يترك باب التصحيح مفتوحًا أمام كلام الله مهما اطمأن إلى مألوفه.

وقد يكون الصد في بعض صوره انتقالًا إلى باطل ظاهر، كما في السجود للشمس، وقد يكون رسوخًا في طريق يظنه صاحبه حقًّا، كما في ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾. الجامع أن السبيل الذي كشفه الله لا يعود هو الحاكم على النظر. ومن هنا تكون عداوة الشيطان أشد من مجرد أن يوقع الإنسان في فعل منفرد؛ إنه يريد أن يحول بينه وبين الطريق الذي كان سيعيد ترتيب أفعاله كلها.

ولهذا يكون من أعظم ما يحفظ القلب أن يبقى ذكر الرحمن فوق ما ألفه الإنسان عن نفسه. فالذي أعرض عن الذكر في سورة الزخرف لم يأتِه القرين في فراغ، والذي زُينت له أعماله في النمل لم يشعر بالصد كما يسميه القرآن. حين يغيب نور الوحي يستطيع المألوف أن يبدو هداية، ويستطيع الباطل أن يستقر في صورة جميلة، ويصبح الثبات على الخطأ في عين صاحبه وفاءً لما يراه حقًّا. ومن هنا لا تكون النجاة في كثرة الشك، بل في كثرة الرجوع إلى ما قال الله.

حَتَّى يَخْطِرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ

ويبقى وجه ثالث للعداوة: قد لا ينجح الصد في منع الطاعة، فيقوم الإنسان إليها ويدخلها بالفعل، ثم تبدأ محاولة أخرى داخلها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قُضِيَ النِّدَاءُ أَقْبَلَ، حَتَّى إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ، حَتَّى إِذَا قُضِيَ التَّثْوِيبُ أَقْبَلَ، حَتَّى يَخْطِرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ، يَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ، حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى» [البخاري: 608، مسلم: 389].

المشهد يتحرك بين فرار وعودة. الأذان يرفعه الناس فيدبر الشيطان حتى لا يسمعه، فإذا انتهى عاد؛ ثم تقام الصلاة فيدبر، فإذا فرغت الإقامة عاد، حتى يصل التشويش إلى داخل الصلاة نفسها. لم يستطع أن يمنع النداء ولا قيام المصلي، فصار باب العمل أن يشغل القلب بما لم يكن يذكره قبل أن يدخل الصلاة. فلا يكون المقصود دائمًا إلغاء الطاعة؛ قد يكون أخذ شيء من حضورها ومعناها.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات في الصلاة فقال: «هُوَ اخْتِلَاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلَاةِ الْعَبْدِ» [البخاري: 751]. ولفظ «اختلاس» من أدق ما يصف هذا الوجه من العداوة؛ فالاختلاس أخذ سريع خفي، لا هدم للعمل كله. الصلاة قائمة، لكن شيئًا منها يُنتزع من حضور صاحبها.

والذي يحب صلاته يفهم ألم كلمة «اختلاس». ليست القضية أن الصلاة بطلت أو أن المصلي خرج من العبادة؛ إنما أن شيئًا عزيزًا يُنتزع من قلبه وهو واقف بين يدي الله. هنا تصبح المجاهدة أرق من مجرد إتمام الحركات: كلما شرد القلب رددته، لا لأنك تريد الانتصار في معركة نفسية، بل لأن بين يديك مقامًا يستحق أن تحضر له. والعدو لا يستحق أن يأخذ من وقوفك بين يدي ربك أكثر مما غفل منك.

فإذا وجدت قلبك يعود إلى ما تركه وراءه وهو في الصلاة، فلا تجعل تكرر الشرود سببًا لتبرد محبتك للصلاة نفسها. أعده مرةً بعد مرة. كل رجوع صغير هو حفظٌ لشيء من حق المقام؛ وغاية العبودية هنا ليست أن تخرج من الصلاة وقد راقبت عدوك جيدًا، بل أن تخرج وقد جاهدت أن تبقى مع ربك.

ولا يلزم من ذلك أن يُنسب كل شرود أو ضعف خشوع إلى الشيطان؛ للنفس شواغلها وللبشر ضعفهم، والوحي لا يأمرنا بتعيين مصدر كل خاطر. لكنه حين يسمّي صورةً بعينها يفتح للإنسان بابًا مهمًا في فهم الطاعة: بلوغ العبادة لا يعني أن العناية بها انتهت. قد تبدأ المواجهة قبلها، وقد تستمر فيها، والمؤمن لا يكتفي بأن يحضر بجسده حيث أمره الله، بل يجاهد أن يبقى قلبه هناك أيضًا.

ولهذا تكمل شكوى عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه صورة التشويش داخل العبادة. أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها علي». فقال صلى الله عليه وسلم: «ذاك شيطان يقال له خِنْزَب» [مسلم: 2203]. فحتى بعد دخول الصلاة قد يقع التلبيس من داخلها؛ فلا يكون موضع العداوة دائمًا منع العبادة من أصلها، بل قد يكون ما ينقص حضور العبد فيها.

وتجتمع هذه الصور على معنى واحد: الشيطان يفر من الأذان ثم يعود للتشويش، والالتفات سُمّي اختلاسًا من الصلاة، وشكوى عثمان تكشف تلبيسًا يقع في القراءة والصلاة نفسها. فبلوغ العبادة لا يعني أن ميدان العداوة انتهى؛ قد يستمر الاعتراض داخلها، بينما تبقى الصلاة لله والطريق إليه.

وبه تتكامل الصور الثلاث من غير أن تكون نسخةً من بعضها. في الأولى يقعد العدو على طريق الطاعة قبل أن تُفعل، فيحاول أن يجعل كلفتها حاجزًا عن السير. وفي الثانية يصد عن السبيل حتى قد يستقر الإنسان في غيره وهو يحسب أنه مهتد. وفي الثالثة يدخل الإنسان العبادة، فلا يكون موضع العداوة تركها، بل ما يمكن أن يُختلس من حضورها. الذي يجمعها أن الطريق إلى الله ليس فراغًا خاليًا من المقاومة، لكن الذي يعلو عليها جميعًا أن الطريق باقٍ لله.

ويعود قول إبليس إلى القلب بمعنى أوسع: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. الضمير في ﴿صِرَاطَكَ﴾ أهم من القعود نفسه؛ فهذا الصراط لله، وهو الذي هدى إليه، وهو الذي يكشف ما يصد عنه، وهو الذي شرع الذكر والوضوء والصلاة والاستعاذة، وهو الذي إذا استعاذ به عبده أذهب عنه ما شاء من كيد عدوه. فالشيطان قد يقعد على الطريق، لكنه لا يملك الطريق، ولا يملك أن يجعل قعوده نهايته.

ومن عرف ذلك لم يستغرب أن يثقل عليه خير، ولم يجعل المشقة وحدها دليلًا على خطأ الاتجاه، ولم يطمئن إلى نفسه لمجرد أنها تحسب أنها مهتدية، ولم ييأس إذا دخل العبادة ثم وجد فيها تشويشًا. يعود في كل موضع إلى الأصل نفسه: ما كشفه الله عن الطريق أصدق من ضغط اللحظة، وما شرعه الله في المواجهة أقوى من الانشغال بعدوه.

فإذا ثقلت عليك طاعة، أو وجدت قلبك يُسحب من حضورها، فلا تجعل ثقل اللحظة حكمًا على الطريق. قد يقعد العدو على الصراط، لكن الصراط لله، وغاية العبودية هنا أن تبقى عليه: تمضي إلى الخير وإن ثقل، وترد قلبك إلى الصلاة إذا شرد، ولا تجعل مقاومة الطريق سببًا لترك الطريق. ليست النجاة في أن تختفي المقاومة، بل في أن يبقى هدى الله أثقل منها في قلبك.

القسم الثالث

هَلْ أَدُلُّكَ؟

لكن معرفة أن العدو يقعد على الصراط ويصد عنه لا تكشف بعدُ كيف تصل دعوته إلى القلب؛ فلو كان الباطل يدخل على الإنسان باسمه لانكشف كثير من أمره قبل أن يبدأ. لكن أول غواية في تاريخ البشر لم تأتِ آدم في صورة دعوة صريحة إلى العصيان؛ بقي النهي نهيًا، وبقيت الشجرة هي الشجرة، غير أن العدو أعاد بناء الصورة حولها: نسب إلى النهي معنى لم يقله الله، وعلّق بالممنوع مآلًا براقًا، ثم قدّم نفسه في هيئة الناصح. فلم تكن المعركة على الفعل وحده، بل على الصورة التي يُرى بها الفعل قبل اختياره.

قال الله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: 20-21]. وفي سورة طه جاءت العبارة أقصر وأشد تركيزًا: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه: 120].

بين النهي الإلهي وبين الفعل لم تقف شهوة مجردة فقط؛ وقف عرض. الشجرة التي حذَّر الله منها صارت في خطاب العدو «**شجرة الخلد**»، والممنوع قُدّم بوصفه طريقًا إلى «**ملك لا يبلى**»، والمتكلم الذي سبق أن أعلن عداوته قال عن نفسه: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾. وهنا يدخل ميزان بالغ الأهمية: ليست الأشياء حقائقها في الأسماء التي تُعطى لها لحظة الإغراء، ولا صدق الداعي في النبرة التي يختارها لنفسه، وإنما حقيقتها فيما كشفه الله عنها وعن طريقها ومآلها.

فالغرور لا يحتاج دائمًا إلى أن يصنع شيئًا من العدم؛ يكفي أن يجعل جانبًا من الصورة يملأ العين حتى يحجب بقيتها. وقد يكون الشيء ممنوعًا معلوم النهي، ثم يُقدَّم في صورة منفعة، أو نجاة، أو دوام، أو نصيحة. والذي يحسم الأمر ليس جمال الاسم ولا حرارة الوعد، بل من سمّى الحقيقة أولًا، ومن يعلم نهايتها.

إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ

من أعجب ما في مشهد الأعراف أن إبليس لم يكتف بعرض المنفعة، بل أدخل نفسه في العرض: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾. حلف لهما، وادعى أن ما يقوله مشورة صادقة لمصلحتهما. فصار أمام آدم وزوجه شيئان معًا: قول عن الشجرة، وقول عن صاحب القول نفسه. لا يطلب منهما أن يصدقا خبره فقط؛ يريد أن يصدقا أنه ناصح.

وهنا تكشف الآيات فرقًا دقيقًا بين دعوى النصح وحقيقة النصح. ليست كل عبارة تبدأ بمصلحتك مصلحةً لك، ولا كل من يقول إنه يريد خيرك قد صار خيره ميزانًا. في هذا المشهد بالذات كان العدو يعرف النهي، ثم أعاد تفسيره: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾. لم ينكر أن هناك نهيًا؛ نقل النظر من حقيقة النهي إلى قصة اخترعها عن سببه، حتى يبدو الامتناع عن الشجرة حرمانًا من منزلة أعلى.

في الحياة لا يأتي كل ما يضر القلب بوجه خشن. أحيانًا يكون أخطر ما في العرض أنه يلامس موضعًا شريفًا فيك: رغبتك في الأمان، أو في البقاء، أو في مصلحة تحسبها خيرًا، ثم يطلب منك أن تعيد تفسير حدود الله من أجلها. ولذلك لا يجعل القرآن المؤمن سيئ الظن بكل ناصح، لكنه يحرره من افتتان أخطر: أن تكون حرارة النصح في الصوت بديلًا عن صدق الطريق.

والقلب بطبيعته يميل إلى من يشعره أن مصلحته مفهومة، وأن رغبته معتبرة، وأن ما يُعرض عليه إنما يراد به خيره. لهذا كان ادعاء النصح جزءًا من الغرور نفسه. ليست البصيرة أن تقسو على كل كلمة رقيقة، بل أن يبقى فوقها سؤال لا تسقطه الرقة: هل يقودني هذا إلى ما رضي الله، أم يجعلني أرى مخالفة هديه في صورة مصلحة؟

وهذا من أعمق ما في المشهد؛ لأن الأمر إذا أُعيد تفسيره على هذا النحو تغيّرت صورته في النفس. لا يعود النهي حمايةً وهداية، بل يُصوَّر كأنه حاجز بين الإنسان وبين خير عظيم. ولا تعود المخالفة سقوطًا من الطاعة، بل تبدو في لحظة العرض كأنها طريق إلى كمال مفقود.

ثم تأتي كلمة القرآن بعد وقوعهما لتسقط هذا البناء كله: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: 22]. كان اسم العرض من داخله نصحًا وخلدًا وملكًا، وكان اسمه عند الله بعد أن كشف حقيقته: غرورًا.

وبين الاسمين تقف حياة كاملة من الاختيارات. كم يتغير وزن الشيء حين يُرى بالاسم الذي يطلقه عليه من يدعو إليه، وكم يتغير حين يُرد إلى الاسم الذي يكشفه الوحي. لم يترك القرآن الإنسان أسير اللغة

التي يُعرض بها عليه الشيء، أعطاه لغةً أعلى منها، تكشف ما وراء الزينة. ولهذا لا تكون البصيرة أن يصبح المرء مرتابًا في كل نصح، وإنما أن يعرف أن صدق الدعوى لا يثبت من دعوى صاحبها، وأن المصلحة لا تصبح حقًا لأنها سُمّيت مصلحة، وأن ما خالف هدى الله لا تنقذه الأسماء الجميلة.

ويزداد المشهد وضوحًا إذا جُمعت أطراف القصة كما جمعها القرآن: الذي قال ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ هو نفسه صاحب العداوة المعلنة، وآدم قد سبق إليه تحذير ربه: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾. ومع ذلك استطاع العرض في لحظته أن ينازع المعرفة السابقة. وهذه من دقائق الابتلاء: أن تعرف الحقيقة ثم يأتيك الشيء في صورة تحاول أن تفصل إحساس اللحظة عن تلك المعرفة. فاتخاذ العدو عدوًا أن تبقى معرفة الوحي حاضرة عند العرض، فلا تنفصل الكلمة عن صاحبها، ولا الصورة القريبة عن الغاية التي كشفها الله.

هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ؟

في سورة طه لا ينقل القرآن القسم بالنصح، بل يضع صيغة العرض نفسها أمامك: ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ﴾. ليست العبارة أمرًا مباشرًا بالأكل، وإنما دلالةٌ مزعومة إلى منفعة: ﴿شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾. وهنا تكمن قوة العرض؛ فالممنوع لا يُقدَّم من جهة المنع، بل من جهة النتيجة التي يدّعيها الداعي له.

وقبل هذه الآية بآيات قليلة كان الله قد عرّف آدم بما بين يديه: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [طه: 118-119]. نعمة حاضرة، وأمان مكشوف، وتحذير صريح من العدو. ثم يأتي العرض فيحوّل البصر إلى ما ليس في اليد: الخلد، والملك الذي لا يبلى.

لا يحتاج الإغراء إلى أن يمحو النعمة الموجودة؛ يكفي أن يجعل ما ليس عندك يملأ عينك حتى يصغر ما عندك. ولا يحتاج إلى أن يثبت أن الممنوع خير؛ يكفي أن يمنحه اسمًا يتصل بأعمق ما تطلبه النفس من البقاء والدوام. ولهذا كانت العبارة ﴿شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ أقوى من اسم الشجرة المجرد؛ فهي لا تصف ذاتها فقط، بل تربطها بمآل متخيّل.

هذه الصيغة قريبة من النفس لأنها لا تقول: اترك أمر الله. تقول: انظر ماذا ستكسب، وانظر ما قد يفوتك، وانظر إلى ما وراء هذا المنع. وحين تضيق العين على المكسب الموعود، قد يغيب السؤال الذي كان يجب أن يسبق كل شيء: ماذا قال ربي؟ وهنا لا تكون النجاة في قسوة على النفس، بل في إعادة الصورة كاملة؛ أن ترى النعمة التي بين يديك، والنهي الذي يحميك، والمآل الذي كشفه الله، لا الصورة الوحيدة التي لمّعها العرض.

وكم تضعف النفس حين تعيش داخل اسم واحد للشيء. إذا سُمِّي الممنوع فرصةً، أو سُمِّي التراجع عنه خسارةً، أو صُوِّرت الطاعة كأنها حرمان، بدأ الميزان يميل قبل أن يقع الفعل. لذلك يعيدك الوحي إلى ما قبل الاسم: من الذي سمّى لك الحقيقة؟ ومن الذي يعلم آخر الطريق؟ ما يقوله العرض عن نفسه جزء من الفتنة، وليس حكمًا مستقلًا عليها.

ثم جاء الواقع على خلاف الاسم الذي حمله العرض: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [طه: 121]. لم ينتقل المشهد إلى خلد ولا إلى ملك لا يبلى، بل إلى انكشاف ما كان مستورًا وإلى أثر لم يكن هو الصورة التي ملأت لحظة الإغراء.

وهنا يعمل ميزان العاجل والمآل في أوضح صوره: العرض يصنع نتيجةً متخيَّلة، والوحي يكشف النتيجة التي وقعت. وبين الصورتين يتعلم المؤمن ألا يزن الفعل بما يَعِده به في لحظة الجاذبية وحدها، فكثير من الاختيارات إنما تقوى في النفس بما يُنتظر وراءها من لذة أو أمان أو قبول أو بقاء. فإذا كذبت صورة المآل، استطاع الفعل أن يبدو في الحاضر على غير حقيقته.

والقرآن لا يعلّمك أن تشك في كل منفعة أو في كل اسم جميل؛ وإنما يعلّمك ألا تجعل الاسم الجميل حجةً على الحقيقة. فالخلد اسم عظيم، والملك الذي لا يبلى صورة آسرة، لكنهما لم يجعلا الشجرة حلالًا، ولم يبدلا حقيقة النهي، ولم يغيرا ما وقع بعد الأكل. ما يزن الشيء ليس مقدار ما يمكن أن يُقال في وصفه، بل موقعه من هدى الله.

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ

في قصة آدم حمل العرض مآلًا متخيَّلًا من الخلد والملك، من غير أن يسمّيه القرآن وعدًا. وفي مواضع أخرى يسمّي القرآن الوعد الشيطاني باسمه صراحةً. ومن أصرحها قوله تعالى في سياق الإنفاق: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 268].

وتحتاج هاتان الكلمتان إلى أن تُسمعا بقلب المنفق: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. واسعٌ حين تضيق الحسابات في عينك، عليمٌ بما يمر في قلبك وأنت تخرج ما تحب. أنت ترى النقص في يدك الآن، والله يعلم ما عندك وما عنده، وما تحتاج إليه غدًا، وما يصلحك. ولذلك لا يكون الإيمان بالوعد تجاهلًا للحساب، بل رفضًا لأن يصبح الحساب المرئي هو الحاكم الوحيد على المستقبل في قلبك.

حين يخرج المال من اليد لا يحتاج المؤمن أن يتظاهر أن الخروج لا يؤلمه، ولا أن حاجته إلى ماله وهم. إنما يحتاج أن يضيف إلى ما تراه عينه ما أخبره به ربه. هنا يعمل الإيمان في أبسط معانيه: الغيب الذي أخبر الله به لا يصير أقل حقيقة لأنه لم يدخل بعد تحت اليد. وإذا كان الله واسعًا، فليس ما خرج من يدك هو آخر حدود الرزق، وإذا كان عليمًا، فليس خوفك من غدك مجهولًا عنده.

المال الذي سيخرج بالصدقة مشهود، أما ما بعد الإنفاق فغيب. وهنا تدخل صورتان للمستقبل في قلب القرار: صورة الفقر التي يخوف بها الشيطان، ووعد الله بالمغفرة والفضل. لم يقل القرآن إن الخارج من المال وهم، ولا أن حاجة الإنسان إلى ماله غير حقيقية؛ لكنه كشف أن هذا الخوف لا يستحق أن يملأ المستقبل في عين المؤمن حتى يحجب عنه ما وعد الله به. هناك وعد آخر، وصاحبه الله الذي قال من أول الطريق: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

وتختم الآية بما يرد القلب إلى صاحب الوعد: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. واسعٌ لا يضيق فضله بما خرج من يدك، عليمٌ بما تنفق وما تخشاه وما يمر بالقلب وهو يفارق شيئًا يحبه لله. فالقرار ليس بين مال يبقى ومال يخرج فحسب؛ بين خوف يرسم لك جزءًا من الغد، ورب واسع عليم يعدك مغفرةً منه وفضلًا.

في هذه الآية يظهر الوعد الشيطاني في موضع محدد: تخويف الإنسان بالفقر عند الإنفاق. فلا تتحول الآية إلى تفسير لكل خوف يمر بالقلب، لكن الموضع الذي سماه الله يكفي ليكشف طبيعة مهمة: قد يعمل العدو على المستقبل الذي لم يقع بعد، فيملؤه بصورة تجعلك تغير طاعتك في الحاضر. وقد تكون الخسارة المتخيلة أقوى على القلب من الفضل الذي وعد الله به؛ لا لأن وعد الله أقل حقيقة، بل لأن العين ترى المال الخارج ولا ترى ما عند الله. وهنا موضع الإيمان: ألا تجعل غياب الوعد عن الحس نقصًا في صدقه.

وفي موقف آخر لم يكن التخويف بالفقر، بل بالعدو. قال الله بعد أن ذكر الذين قيل لهم: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173]، ثم قال: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 175]. واختار الطبري أن المعنى: يخوّف المؤمنين بأوليائه من المشركين، واحتج لهذا الوجه في تفسير الآية. فالقرآن

لا ينكر وجود العدو ولا عدته، لكنه يرد الخوف إلى ميزانه: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾، فلا تصبح الصورة المخيفة هي التي تحكم القرار، ولا يأخذ خوف المخلوق موضعًا يزاحم أمر الله والثقة به.

ولا يطلب منك القرآن قلبًا لا يعرف الخوف، بل يعبد الله بخوفه كما يعبده برجائه. حين يقول: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ يعيد جهة الخوف إلى موضعها، فلا يكبر المخلوق في القلب حتى يحجزه عن طاعة الخالق. ليست الشجاعة جفافًا في الشعور، وإنما أن يبقى الله أعظم في قلبك من كل ما يخوفك به عدوه.

وفي سورة النساء تتسع الدائرة من وعدٍ بعينه إلى الوعد والتمنية في سياق الولاية والاتباع: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ [النساء: 119]، ثم ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: 120]. لا يشرح النص هنا أمنيةً واحدة بعينها حتى نحصر اللفظ فيها؛ يكفي أن نرى موقع التمنية من الإضلال، ثم الحكم الإلهي على الوعد كله: غرور.

لكن السياق لا يكتفي بإسقاط الوعد الشيطاني: ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾، فبعد آيتين يضع أمامه الوعد الآخر: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: 122]. وهنا تكتمل داخل هذا السياق مقابلة الوعدين: وعدٌ سمّاه الله غرورًا، ووعدٌ وصفه بأنه حق، ثم ختم بالسؤال الذي يرد القلب إلى مصدر الصدق: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾.

وفي سورة الإسراء يرد الوعد داخل مشهد أوسع من أدوات العداوة: ﴿وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: 64]. فالوعد أداة مسمّاة ضمن أدوات متعددة، لا اسمًا جامعًا لكل نزغ أو صد أو وسوسة؛ وحين يسميه القرآن يحكم عليه من قبل أن تنكشف نهايته: غرورًا.

وهذه من رحمة الوحي: أن يكشف لك ما تحتاجه من أمر المستقبل قبل أن تصل إليه. لا تملك أن تختبر كل وعد ثم تعود لتختار؛ لذلك يسمّي الله لك الوعد الغرور، ويعرّفك بالوعد الحق، حتى يكون كشفه أثقل في قلبك من مستقبل صنعه الخوف أو الأمنية.

زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا

قد توحي كلمة «**الوسوسة**» بأن ساحة التأثير كلها داخل النفس، لكن القرآن يفتح مشهدًا أوسع بكثير. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: 112-113].

الزخرف هو الزينة، والقول هنا مزين بالباطل ليغر من يسمعه. لم يعد التأثير خاطرًا يمر في صدر فرد؛ صار كلامًا يُتداول، يوحي بعض الشياطين به إلى بعض، وتصبح اللغة نفسها وعاءً للغرور.

وهذا يضيف إلى الميزان شيئًا بالغ الأهمية: جمال العبارة ليس دليلًا على صدق معناها. فالزينة في القول ليست مذمومة لذاتها، وإنما الخطر حين تحمل الباطل حتى يصير حسنها ساترًا لقبح ما تدعو إليه. قد يكون الكلام محكم الصياغة، شديد القدرة على تحريك القلب، ثم لا يكون جماله شاهدًا واحدًا على صدقه.

ثم تكشف الآية التالية حركة هذا الزخرف في القلوب: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾. في هذا السياق نفسه يرسم القرآن انتقالًا واضحًا: ميل القلب إلى القول، ثم الرضا به، ثم اقتراف العمل. ولا يلزم من هذا التتابع أن يكون قانونًا ثابتًا لكل معصية أو لكل إنسان؛ فهو التتابع الذي ذكرته الآية في هذا السياق، فيكشف أن الكلام المزين قد لا يبقى كلامًا، بل يستطيع أن يجد طريقه من السمع إلى القلب، ومن القلب إلى الرضا، ومن الرضا إلى الفعل.

والأشد دلالة أن القرآن ربط ميل هذه الأفئدة بكون أصحابها ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾. فحين يغيب المآل الأكبر من الميزان يصبح زخرف اللحظة أثقل. القول الجميل حاضر تسمعه الأذن، أما الحساب فغيب؛ فإذا سقط الغيب من النظر صار للحاضر سلطان أوسع على القلب. وهنا يعمل الميزان من باب آخر: ما يلمع الآن لا يملك أن يحدد الحقيقة وحده إذا كان الله قد كشف ما وراءه.

وفي قلب هذا المشهد الذي امتلأ بالشياطين والوحي المتبادل وزخرف القول، يضع القرآن كلمة تمنع العدو من أن يكبر فوق قدره: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: 112]. وجود العداوة لا يخرج لحظةً عن ملك الله ومشيئته، وكشفُ وسائلها لا يحوّلها إلى قوة مستقلة تدير المشهد. بل حتى هنا، حيث يبلغ القول المزيَّن أثره في الأفئدة، يبقى الرب فوق المشهد كله.

ومع ذلك لا يحمل هذا النص المؤمن على سوء الظن بكل بليغ، ولا يبيح له أن يسمي مخالفيه «**شياطين الإنس**» لمجرد أنهم خالفوه. الآية تصف عداوةً للأنبياء وزخرفًا للقول بالباطل في سياق مخصوص، وتعلمنا ميزانًا لا ملصقًا نوزعه على الناس: افصل بين قوة العرض وصدق المعروض، وبين حسن العبارة وحسن ما تدعو إليه.

ومن أول الشجرة إلى زخرف القول يتكرر التحول نفسه بأشكال مختلفة: شيءٌ له حقيقة عند الله، ثم يأتيه عرض يحاول أن يمنحه اسمًا آخر أو مستقبلًا آخر أو وزنًا آخر في القلب. مرةً يلبس ثوب النصح، ومرةً يتحدث باسم الخلد، ومرةً يملأ الغد بصورة الفقر، ومرةً يعظم أولياءه في القلوب، ومرةً يتزين القول حتى تصغي إليه الأفئدة. ليست الصور سواء، لكن موضع الاختبار واحد: أيُّ الكشفين سيحكم رؤيتك، ما يملأ اللحظة أم ما كشفه الله؟

ومن هنا تصير عداوته فعلًا في ميزانك، لا مجرد شعور في قلبك. لا تمنح الاسم الجميل سلطةً على الحقيقة، ولا الخوف سلطةً على الغيب، ولا الزخرف سلطةً على المعنى. فالذي يملك أن يسمّي لك الطريق على حقيقته هو الذي يعلم ظاهره وباطنه ونهايته؛ والذي يملك أن يعدك بالمستقبل هو رب المستقبل نفسه.

وعندئذ تعود كلمة فاطر وقد اتسع معناها في القلب: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: 5]. لقد سمّى القرآن ما وقع لآدم غرورًا، وسمّى وعد الشيطان غرورًا، وسمّى زخرف القول غرورًا؛ وكل مرة يكشف أن الصورة التي نجحت في جذب القلب لم تغيّر حقيقة الشيء عند الله.

ولا تثمر هذه البصيرة ريبةً في كل جميل ولا خوفًا من كل وعد؛ بل تحرر الجمال والوعد والكلام من أن تكون هي الحكم على نفسها. يبقى الجميل جميلًا، لكن الحق أعلى منه؛ ويبقى الخوف إحساسًا معتبرًا، لكن أمر الله أعلى منه؛ ويبقى الكلام قادرًا على التأثير، لكن صدقه لا يُستخرج من مقدار تأثيره.

وتبقى جملة العدو الأولى سؤالًا يتكرر بصور لا تنتهي: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ؟﴾. قبل أن تجيب، ليست المسألة فقط: هل يعجبني ما أراه؟ بل: من دلّني، وإلى ماذا، وماذا كشف الله عن هذا الطريق؟ فقد يكون العرض خلدًا في الاسم، ثم يكون مآله انكشاف السوءة؛ وقد يكون المستقبل فقرًا في الخوف، ثم يقول الله في الجهة الأخرى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾. ومن عرف من الأصدق قيلًا، لم يعد مضطرًا أن ينتظر نهاية الغرور حتى يعرف أنه غرور.

القسم الرابع

لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ

لكن معرفة هيئة العرض لا تعني أن كل ما يعرض للإنسان قد صار اتباعًا؛ فبين العرض والاستجابة مساحة يقوم فيها التكليف. ليس كل ما يمر بالقلب طريقًا سلكه صاحبه، ولا كل ما يلمّ بالنفس اختيارًا تبنّاه الإنسان. وهذه حقيقة لا يستغني عنها من أراد أن يعرف عداوة الشيطان من غير أن يتحول علمه بها إلى خوف من نفسه. فالقرآن الذي يحذر من الشيطان هو نفسه الذي يفرّق بين أن يمس الإنسانَ عارضٌ منه، وبين أن يتبعه؛ وبين أن تأتي الدعوة، وبين أن تقع الاستجابة؛ وبين أن يمر الخاطر، وبين أن يصير طريقًا وولايةً وقرينًا.

قال الله في وصف المتقين: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ [الأعراف: 201]. وأول ما يلفت النظر أن الآية أثبتت المسَّ للمتقين أنفسهم؛ فلم تجعل مجرد ورود الطائف سقوطًا من التقوى، ولا جعلت التعرض اتباعًا أو رضا.

والآية قبلها لا تترك النزغ في عالمٍ خفي يراقبه الإنسان، بل ترده إلى باب العبودية والرجوع إلى الله. فمعرفة وجود العدو لا تعني الانشغال بتشخيص كل ما يعرض، وإنما معرفة الحد بين ما يرد على القلب وبين ما يمنحه الإنسان من قبول واتباع.

وفي المسافة بين ورود العارض وبين ما يفعله الإنسان بعده يتحدد شيء من أخطر معاني المسؤولية: لست مسؤولًا عن كل ما يعرض لك كما لو أنك اخترعته أو رضيته، لكنك لست متروكًا له أيضًا. قد يطرق القلب ما يكرهه صاحبه، وقد تثور فيه رغبة أو غضب أو وسوسة، ثم يكون الموقف الحقيقي فيما يمنحه الإنسان لهذا العارض من قبول أو رفض أو متابعة.

ومن هنا تبدأ «**الخطوات**» في موضعها الصحيح: لا من مجرد أن شيئًا مرّ بك، بل من أن يُتبع الأثر ويُسلك الطريق.

إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ

يلفت القرآن إلى أن المس قد يقع بالمتقي نفسه: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾، ومع ذلك لم يسم هذا المس اتباعًا ولا رضا. فالفرق يبدأ قبل الحديث عن كيفية المقاومة: وجود العارض شيء، وتسليم القلب له شيء آخر.

وتأتي السنة فتزيد هذا الفصل وضوحًا ورحمةً. جاء ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، فقال: «أَوَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟» قالوا: نعم، قال: «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ» [مسلم: 132]. لم تكن الوسوسة نفسها إيمانًا، إنما كان نفورهم منها وتعاظمهم أن ينطقوا بها شاهدًا على أن القلب لم يرضها ولم يتبنها. فوجود القول المكروه في النفس شيء، وتحوله إلى اعتقاد مختار شيء آخر.

ويزيد هذا الفصل وضوحًا قوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ» [البخاري: 5269؛ مسلم: 127]. حديث النفس ليس هو العمل، والخاطر ليس هو القول، والعرض ليس هو الاستجابة. وهذا من أعظم ما يقطع الطريق على أن يستخدم الخوف من الشيطان ضد الإنسان نفسه، فيجعله يحاكم قلبه على كل ما مر فيه، ويعامل اللمحة العابرة كأنها قرار مكتمل.

وربما كان بعض الناس أشد تعبًا من الوسوسة بسبب خوفهم منها لا بسبب مضمونها. تأتي الكلمة التي يكرهها، فيفزع من مجرد وجودها، ثم يبدأ سؤال جديد: ماذا تعني عني؟ وهل كنت أريدها؟ وهل صرت بها كذا؟ وهنا تنقذه حدود الوحي من أن يتحول خوفه من الشيطان إلى باب آخر من تعذيبه. ما لم تختره ليس هو سيرتك، وما كرهه قلبك ليس اعتقادًا تبنيته. اعبد الله في موقفك منه، ولا تمنح العارض من المعنى أكثر مما أعطاه الشرع.

وفي هذا رحمة لا تميع التكليف، بل تحرره من المكان الخطأ. لا تُحاسب نفسك على مجرد الطرق على الباب، وإنما على ما تفعله بعده. قد يلح الخاطر ولا تحبه، وقد يكرر حضوره ولا تمنحه رضاك، وقد تجد في نفسك ما تتمنى ألا تجده؛ ومع ذلك يبقى باب الطاعة مفتوحًا في قرارك الآتي. أنت لست مجموع ما يعبر فيك، بل عبدٌ يُبتلى ثم يختار كيف يجيب.

لكن الرحمة هنا لا تمحو المسؤولية، بل تضعها في موضعها. فالخاطر غير المختار لا يساوي قولًا ولا عملًا، ومع ذلك يبقى الإنسان مسؤولًا عما يمنحه لهذا العارض بعد وروده: هل يتركه يمر، أم يرضاه ويتبناه في قلبه، أو يترجمه إلى قول أو فعل أو مسار؟

فالوحي لا يجعل مجرد ورود العارض ذنبًا، وإنما يفرّق بين ما يَرِد بغير اختيار، وبين ما يختاره العبد بقلبه أو قوله أو فعله. وهنا يبقى باب المسؤولية واضحًا من غير أن يُحمَّل الإنسان ما لم يختره.

لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ

بعد العارض تأتي كلمة أخرى يكررها القرآن: الاتباع. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 168-169]. وقال في موضع آخر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [النور: 21].

فسر الطبري الخطوات بأنها طريق الشيطان وآثاره فيما دعا إليه مما يخالف طاعة الله، وجمع أقوال السلف فيها من العمل والخطايا والطاعة ثم ردها إلى هذا المعنى الجامع. فاللفظ يرسم حركة: طريق له آثار، ودعوة يمكن أن تُقتفى. ولا يعطي النص أساسًا لأن نحول «**الخطوات**» إلى سلم نفسي ثابت لا بد أن يمر به كل إنسان بالترتيب نفسه؛ الذي يثبته القرآن أوسع وأدق: لا تسلك طريقه، ولا تتبع أثره.

واللافت أن هذا النهي في سورة البقرة جاء بين أمرين يردّان الحكم إلى الله: ﴿كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾، ثم في الآية التالية ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. فاتباع العدو لا يظهر دائمًا في صورة الانفلات من الحكم؛ قد يظهر أيضًا حين يُنسب إلى الله حكم لم يقله، فيُحرَّم ما أحل أو يُقال عليه بلا علم. فالميزان ليس شدة الفعل ولا مظهره الديني، بل موافقته لما شرعه الله.

وهذا المعنى أشد اتصالًا بالمسؤولية من صورةٍ تجعل الشيطان يدفع الإنسان دفعة واحدة إلى النهاية. فالخطوة بطبيعتها فعل يقع في جهة؛ وربما كانت صغيرة في عين صاحبها، لكن قيمتها ليست في حجمها وحده، بل في الطريق الذي تدخل فيه. ولهذا يأتي النهي قبل ذكر ما يأمر به الشيطان: لا تتبعوا طريقه، ﴿فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾. ليست المسألة أن كل خطوة صغيرة ستنتهي حتمًا إلى صورة واحدة من الفاحشة، وإنما أن العدو الذي عُرف قصده لا ينبغي أن يُسلَّم له أول الطريق بحجة أن هذه الحركة وحدها لا تبدو كبيرة.

وتزداد دلالة آية النور حين تُقرأ في سياقها؛ فقد جاءت بعد حديث الإفك، ثم قال الله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور: 21]. فالتحذير من اتباع خطوات الشيطان لا يترك الإنسان متكئًا على قوة مراقبته لنفسه، بل يعيده إلى فضل الله ورحمته وتزكيته. العداوة حقيقية، والاتباع مسؤولية، والنجاة مع ذلك فضل من الله.

ومن أجمل ما في الآية أن التزكية لم تُنسب إلى مهارة العبد في مراقبة الخطوات، بل قال الله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾. فإذا نجا القلب من خطوة فلا يحق له أن يعجب بيقظته، له أن يحمد من زكاه ويسأله الثبات. هكذا تجتمع المجاهدة والافتقار: تبذل لأنك مأمور، وتعلم أن سلامة قلبك فضل لا تستغني فيه عن ربك.

وهنا ينتقل القلب من مراقبة الخطوات إلى سؤال أعمق: من الذي يزكيه أصلًا؟ قد تعرف موضع الخطر، وتتعلم كيف لا تتبعه، ثم يفتح لك الله باب سلامة لا تعرف كيف فُتح، ويصرف عنك باطلًا لم تر كل أسبابه. فلا تنظر إلى كل نجاة باعتبارها شهادة بكمال بصيرتك. كم من خطوة لم تمشها لأن الله رحمك قبل أن تنتبه، وكم من ميل خمد لأن الله لم يتركه يكبر. المجاهدة منك عبودية، والتزكية منه فضل.

وحين تستقر هذه الحقيقة يختلف طعم اليقظة نفسها. لا تعود مراقبة النفس مشروع اعتماد عليها، بل سببًا لمزيد من الافتقار. ترى موضع ضعفك فتسأل الله أن يحفظه، وترى سلامتك من باب فتشكره بدل أن تعجب بها. الغاية ليست أن تصنع في داخلك إنسانًا لا يُخدع، بل أن تبقى عبدًا يعلم أن قلبه لا يزكو إلا بمن يزكي من يشاء.

وهذا التوازن يمنع انحرافين متعاكسين. الأول أن يقول الإنسان: «**الشيطان أغواني**» حتى يمحو اختياره. والثاني أن يتخيل أن سلامته ثمرة يقظته وحدها، فينسى من يزكي القلوب ويحفظها. القرآن يضعك بين الأمرين: لا تتبع، ثم يذكرك: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾.

وإذا كان لفظ «**الخطوات**» ينبه إلى الطريق والاتباع، فإن القرآن يجعل المفصل بين فعل العدو وفعل الإنسان صريحًا في جملة لا تسمح بأن تُنقل مسؤولية الاستجابة كلها إلى الداعي.

دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي

وقال الشيطان لأتباعه يوم القيامة: ﴿إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: 22].

في قلب هذا المشهد تقع الجملة التي يقيم بها القرآن الحد بين فعل العدو وفعل الإنسان: ﴿دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾. الدعوة فعل العدو، أما الاستجابة ففعل من أجابه، ولا تتحول شدة الدعوة إلى سلطان قاهر يمحو هذا الفرق.

وهذه المساحة هي التي رأيناها في صورة أخرى عند ﴿طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾: يمكن أن يمس العارض من غير أن يكون المس اتباعًا. وهي التي يظهرها لفظ ﴿خُطُوَاتِ﴾: يمكن أن يوجد الطريق، ثم يقع النهي عن اتباعه. وهي التي تنطق بها إبراهيم صراحة: ﴿إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: 22]. الدعوة وحدها لا تساوي الاستجابة.

ويأتي في سورة سبأ ما يزيد هذا المعنى إحكامًا: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: 20]. اللفظة الحاسمة هنا هي: ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾، ومع ذلك لم يكن الاتباع شاملًا: ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. فالنص يثبت أثر العدو، لكنه يثبت في الجملة نفسها أن الاستجابة لم تكن قدرًا عامًا لا يخرج منه أحد.

والمسؤولية هنا ليست بابًا إلى القنوط، بل دليل على أن الدعوة لم تسلب الإنسان اختياره: يمكن أن يخالف، ويمكن أن يرجع، وقد استثنى الله من الاتباع نفسه ﴿فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ولهذا لا يساوي إلحاح الخاطر انعدام الاختيار، كما لا تجعل استجابة سابقة الطريق قدرًا لا يُرد. قد يشتد الضغط، لكنه لا يصير بمجرد شدته قهرًا، وقد تقع الزلة، لكن باب الرجوع إلى الله لا ينغلق بها.

وتسمي النصوص صورًا مختلفة لعلاقة الإنسان بعدوه: طائفًا يمس، وأثرًا يُتبع، ودعوةً يُستجاب لها، وقرينًا يصاحب، واستحواذًا يقترن بنسيان ذكر الله. والجامع بينها أن موقف الإنسان يظل ظاهرًا في المشهد: يعرض أو يتبع، يستجيب أو يمتنع، ويحفظ صلته بذكر الله أو يبتعد عنها.

نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۝ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: 36-38].

بدأت الآية من جهة الإنسان: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾، ثم جاءت صورة القرين: ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾. فالقرين هنا لا يُجعل تفسيرًا لكل خاطر ملازم، ولا خبرًا يعلّق به الإنسان كل

ما يجد في نفسه، النص يربطه بالإعراض عن ذكر الرحمن، ثم بصحبة تصد عن السبيل حتى يجيء الندم عند النهاية.

وتربط الآيات هذه الصحبة بالإعراض عن ذكر الرحمن، ثم تمد المشهد حتى نهايته: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾. فالإضافة التي تحملها الصورة ليست إعادة معنى الصد وحده، بل كشف العلاقة التي بدأت بالإعراض ثم انتهت إلى ندم على هذه الصحبة نفسها.

وفي سورة المجادلة صورة أشد رسوخًا: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: 19]. يجمع النص بين الاستحواذ ونسيان ذكر الله ثم يصف أصحابه بحزب الشيطان ويكشف مآلهم: ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. وهذه صورة قرآنية ثقيلة لا تُلقى على كل عاصٍ، ولا تتحول إلى ملصق للمخالفين؛ وإنما تُحفظ في السياق الذي وضعها الله فيه.

ومن اللافت أن هاتين الصورتين تلتقيان عند الذكر: في الزخرف تبدأ العلاقة بالإعراض عن ﴿ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾، وفي المجادلة ينتهي الاستحواذ إلى ﴿فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾. فالذكر والإعراض عنه ليسا تفصيلًا على هامش صور العلاقة الأرسخ؛ بهما يتغير موضع القلب من الهدى والصد.

فتتباين الصور من غير أن تذوب في بعضها: عارض يمس المتقي من غير أن يكون المس اتباعًا، وإنسان يعرض عن ذكر الرحمن فتتشكل علاقة أرسخ بقرين يصدّه عن السبيل. الفرق بين الصورتين يحفظ موضع المسؤولية من غير أن يحول النصوص إلى مراحل حتمية.

ومن هنا يظهر معنى ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ في موضع التكليف الحاضر. العارض لا يساوي اتباعًا، وظهور الطريق لا يوجب سلوكه، والدعوة لا تصبح استجابة إلا حين يجيبها الإنسان. ويعود السؤال في كل ذلك إلى موضع أبسط وأصدق: ما الذي سأختاره الآن؟

فالعدو يدعو، والطريق قد يظهر، والخطوة قد تعرض، لكن القرآن يعيد المسؤولية إلى يد الإنسان من غير أن يقطعها عن فضل الله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾.

وبعد هذا كله لا يخرج المؤمن أسيرًا لأول خاطر ولا أول خطوة ولا أول زلة. لقد فرّق الوحي بين العارض والاتباع، وبين الدعوة والاستجابة، وربط النجاة بفضل الله وتزكيته. وفي هذه المساحة يعيش التكليف والمجاهدة والتوبة: لا إنكار لعمل العدو، ولا تسليم له بقيادة القلب.

فليست العبرة بأن تعرف كم اقترب العدو، بل بألا تمنحه ما لم يملكه بمجرد اقترابه: قبولك واتباعك واستجابتك. والعارض ليس طريقًا حتى تسلكه، والدعوة ليست قرارًا حتى تجيبها. وما دام الله قد أبقى لك باب الاختيار والرجوع، فلا تجعل أول خاطر حكمًا عليك، ولا أول زلة تعريفًا لك؛ ارجع إلى من يزكي من يشاء، واسأله ألا يكل قلبك إلى نفسه.

القسم الخامس

إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ

قد يبدأ اختيار الإنسان في قلبه، لكنه لا يبقى هناك دائمًا. يصير كلمة، والكلمة تقع في قلب آخر، ثم يعود جوابها إلى صاحبها، فينشأ من القول قول، ومن الموقف موقف. وهنا ينقل القرآن ميدان العداوة من داخل الفرد إلى ما بين الناس: إلى اللسان، والخصومة، والغضب، وما يمكن أن يفسد علاقةً كانت قبل لحظة الكلام على حال أخرى.

قال الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: 53]. تبدأ الآية بأمر الله لعباده قبل أن تخبرهم بفعل عدوهم: ﴿يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. فالمؤمن لا يحرس علاقته بالناس أولًا بتشخيص ما يجري في الخفاء، بل بطاعة ظاهرة يملكها: ماذا سيقول؟ وكيف سيقوله؟

قد يكون معه حق، وقد تكون إساءة الطرف الآخر ثابتة، ومع ذلك يبقى أمامه أكثر من لفظ، وأكثر من طريقة، وأكثر من موضع يستطيع أن يقف عنده أو يتجاوزه. ولم يقل الله: يقولوا الحق فحسب، مع أن الحق واجب، قال: **﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾**. فالحق لا يحتاج إلى أن يحمله كل ما يستطيع الغضب أن يضعه في الكلام، والكلمة لا تنتهي دائمًا عند مقدارها الأول.

يَنزَغُ بَيْنَهُمْ

في قوله: ﴿يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ يلفت القرآن النظر إلى «**البين**» نفسه: إلى المسافة التي تصل إنسانًا بإنسان. وقد جاء في التفسير أن النزغ هنا إفساد وتهييج بعضهم على بعض. وهذا يفسر قوة الأمر السابق بأحسن القول، فالخصومة قد تبدأ بجملة يراها صاحبها ردًّا مستحقًا، ثم تستدعي جوابًا أشد، ويقرأ كل طرف كلام الآخر من أسوأ جهة، حتى تصبح الخصومة مولدةً لما يغذيها.

والقرآن لا ينتظر اكتمال هذا المسار ليعالجه، يعيد المؤمن إلى ما يملكه في أوله: ﴿يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. ليست هذه زينة أخلاقية فوق الحقيقة، ولا دعوة إلى تضييع الحقوق، وإنما عبودية تحفظ الحق من أن تحمله طريقةٌ تفتح من الشر أكثر مما يغلقه الحق نفسه.

وفي خاتمة قصة يوسف، بعد سنين الفراق وما كان من إخوته، قال يوسف عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: 100]. سمّى يوسف ما وقع «**بيني وبين إخوتي**» نزغًا، مع بقاء مسؤولية إخوته ظاهرةً فيما نسبه القرآن إليهم من قول وفعل. فالنزغ هنا يكشف أثرًا في العلاقة من غير أن يمحو اختيار البشر داخلها.

والأهم أن يوسف لا يجعل النزغ مركز خاتمة القصة. يذكره، ثم ينتقل قلب المشهد إلى الله: ﴿**إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ**﴾. الذي بقي في آخر الطريق ليس قوة ما فرّق، بل لطف من جمع بعد الفراق وأخرج من المحنة ما لم تكن بدايتها تكشفه. فالعدو قد يعمل في «**البين**»، لكنه لا يملك أن يجعل ما وقع فيه النهاية المحتومة.

لو وقفت عند سنوات الفراق وحدها لرأيت نزغًا وجرحًا وغيابًا؛ أما يوسف في آخر القصة فيرى يدًا أخرى كانت تعمل فوق ما يراه البشر: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾. اللطف لا يعني أن الألم لم يكن ألمًا، بل أن ربك يستطيع أن يحمل من قلب الطريق ما لا ترى أنت كيف سيلتئم، وأن يخرج من تاريخ التمزق خاتمة لم تكن في حساب أحد. لذلك لا يملك النزغ أن يكتب النهاية لمجرد أنه كتب فصلًا مؤلمًا منها.

وهذا يهب المؤمن سعةً في لحظة التوتر بينه وبين الناس. ليس كل ما انكسر يجب أن يبقى مكسورًا إلى آخر العمر، وليس كل سوء جرى في علاقة صار قدرها الأخير. تفعل ما أمرك الله به من أحسن القول والعدل والإصلاح، ثم تترك مساحةً للطف الله لا تستطيع أنت أن تصنعها بيدك. كم من قلب لا تملك فتحه، ولا تملك مع ذلك أن تحد قدرة الله على أن يلطف به.

ومن ذاق معنى ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ لم يعد إصلاح ما بين الناس معلقًا بقوته وحدها. يقول الأحسن، ويصبر، ويدفع بالتي هي أحسن، ثم يعلم أن القلوب والنتائج ليست ملكه. فيخف اندفاعه إلى القسوة ليضمن النهاية بيده، ويزداد افتقاره إلى لطف الرب الذي جمع يوسف بأهله بعد سنين لم يكن ظاهرها يبشر بالجمع.

ولهذا يفتح الله في سورة فصلت أمام العداوة إمكانًا آخر: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا

يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: 34-35]. السيئة باقية سيئة، والعداوة واقعة، لكن فعل الطرف الآخر لا يُعطى وحده حق تحديد فعل المؤمن. وقد يكشف الله من مآل الدفع بالأحسن ما لا تراه حرارة الإساءة في لحظتها. ثم يجيء بعد ذلك التنبيه إلى نزغ الشيطان؛ لأن هذا من المواطن التي تشتد فيها حاجة القلب إلى ألا يسلم زمام الاستجابة للغضب.

وهنا يستقر الحارس الذي يكفي هذا الباب كله: حيث سمّى الوحي النزغ نثبته كما سمّاه، وحيث لم يسمِّ المصدر لا نصنع من تشابه الغضب والخصومة خبرًا عن الغيب. فالإنسان قد يظلم لهواه، أو يخطئ في تقديره، أو يتعمد الأذى، ويبقى في كل حال مسؤولًا عن لسانه وقراره. ومعرفة العدو لا تمنحنا علمًا بما وراء كل نزاع؛ وإنما تعلّمنا كيف نحرس ما بيننا حين يكشف الله موضعًا من مواضع نزغه.

يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ

وفي سورة المائدة يكشف القرآن مآلًا سماه صراحة في سياق محدد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: 90-91].

في آية واحدة يكشف الله جهتين من الفساد: ما يقع «**بينكم**» من عداوة وبغضاء، وما يقع في صلة العبد بربه من صد عن ذكر الله وعن الصلاة. فلا تبقى الخمر والميسر في صورة لذة أو مكسب أو عادة يراها صاحبها في لحظتها؛ الوحي يكشف شيئًا من الطريق الذي يريده العدو من ورائهما.

وهنا يعمل الميزان بلا حاجة إلى إضافة وعد لم يذكره النص ولا تزيين لم يسمّه. يكفي أن الله كشف المآل: ﴿أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾، ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾. وما دام الذي يعلم حقائق الطريق قد كشف هذه النهاية في موضعها، لم يعد الفعل يوزن بلحظته وحدها.

وقوة الآية في دقتها مثل قوتها في تحذيرها. هي تتحدث عن الخمر والميسر، فلا نحول المآل المذكور فيها إلى قانون آلي وراء كل خصومة. لكنها تكفي لتكشف أن فساد ما بين الناس ليس هامشًا في هذه العداوة، وأن العدو قد يجمع في فعل واحد بين ضرب العلاقة بالناس والصد عن عبادة الله.

ثم لا ينتهي الكشف عند التشخيص: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾. حين يكشف الله الحقيقة والمآل، يطلب هذا الكشف موقفًا. فالقرآن لا يعلّم المؤمن أن يتفرج على طريقة العدو، بل أن يجعل ما كشفه الله أثقل من صورة الفعل القريبة.

وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ

وتأتي السنة فتجسد هذا الميدان في جماعة المسلمين. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ» [مسلم: 2812]. وموضع الدلالة هنا بيّن في الجملة التي أبرزها النبي صلى الله عليه وسلم: «وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»؛ أي في إفساد بعضهم ببعض وتهييجهم. ومعنى اليأس في الحديث لا يُحوَّل إلى حكم تاريخي مطلق بأن الشرك لا يقع بعد ذلك؛ أما الذي يبنيه هنا فظاهر: التحريش ميدان خطير من ميادين عمل العدو.

واللافت في الحديث أن المخاطبين «المصلون». فوجود الصلاة في حياة الإنسان لا يجعل علاقاته خارج ميدان العداوة. قد يقف بين يدي الله، ثم يخرج إلى موطن يحتاج فيه إلى طاعة أخرى: أن يملك لسانه عند الغضب، وألا يعطي الخصومة من نفسه ما يوسعها، وألا يجعل الأخوة فريسةً لكلمة يستطيع أن يمنعها.

وفي الأسرة يجيء حديث آخر أشد تصويرًا لخطورة التفريق. قال النبي صلى الله عليه وسلم في سرايا إبليس: «فَيَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ»، قال: «فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ» [مسلم: 2813]. فالحديث يثبت تعظيم هذا النوع من الإفساد، ولا يعيّن لنا مصدر واقعة أسرية بعينها.

وهذا وحده يغيّر وزن الكلمة في البيت. العلاقة التي قال الله فيها: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: 21] ليست شأنًا صغيرًا حتى يكون إفسادها لعبة غضب، ولا يكون الإصرار على الإيذاء اللفظي أمرًا محايدًا ما دام صاحبه يرى نفسه محقًا في أصل الشكوى. قد يكون الحق ثابتًا، ويبقى السؤال: ماذا تصنع طريقتي في قوله بالعلاقة التي أمر الله بحفظها؟

وحين يعلم الزوج أو الزوجة أن المودة والرحمة من آيات الله، تتغير قيمة الكلمة عند الغضب. ليست المسألة فقط: هل أملك حق الرد؟ بل: ماذا أفعل الآن بشيء جعله الله بيننا؟ قد تحتاج إلى بيان حق أو

وقف ظلم، لكن ليس كل ما يقدر الغضب أن يقوله جزءًا من البيان. أحيانًا تكون عبوديتك في أن تحمي من لحظة واحدة ما بنته أعوام.

ولا يعني حفظ المودة أن تسكت عن حق، كما لا يعني طلب الحق أن تهدم المودة. بين الأمرين مساحة واسعة يظهر فيها معنى ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: أن تقول ما يجب، من غير أن تسلّم للغضب حق اختيار كل لفظ، وأن تعرف أن انتصار اللحظة قد يكون خسارةً لشيء أكبر منها.

وفي مشهد الغضب استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم، فاشتد الغضب بأحدهما حتى ظهر في وجهه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ الَّذِي يَجِدُ»، ودله على التعوذ بالله من الشيطان الرجيم [البخاري: 3282؛ مسلم: 2610]. كانت الخصومة قائمة والكلمات متبادلة، ومع ذلك لم تكن اللحظة مغلقة؛ بقي باب يرد القلب إلى الله قبل أن يعطي الغضب مزيدًا من اللسان.

ومن أدق ما يتعلمه المؤمن هنا ألا يخلط بين عداوتين. الشيطان هو الذي أمره الله أن يتخذه عدوًا، أما الإنسان الذي أخطأ عليه فقد يأمره الله معه بأحسن القول، ودفع السيئة بالأحسن، والعدل، والعفو في موضعه. فإذا جعل خصمه البشري هو العدو الذي تستباح معه كل قسوة، نقل العداوة إلى غير موضعها. والغلبة في هذا المقام ليست أن يملك آخر كلمة، بل أن يبقى في شدة الغضب عبدًا لله، لا تسوقه الإساءة حيث يريد النزغ، ولا تنتزع الخصومة منه ما أمره الله أن يحفظه. ومن هنا يعود أمر القرآن أثقل من حرارة الرد: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ

ولا يقع الإفساد بين الناس دائمًا في مواجهة مباشرة. فالقول يستطيع أن ينتقل من شخص إلى شخص، ويحمله من لم ينشئه، ويصبح السامع ناقلًا بعد أن كان متلقيًا. وهنا يعود قول الله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: 112].

وتحمل الآية حركةً أخرى فوق هيئة الخطاب وزخرفه: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾. التأثير لا يلزم أن يبقى خاطرًا في صدر فرد؛ يمكن أن يصير قولًا متداولًا، يتلقاه إنسان ثم يبلغه إلى غيره. وبذلك يصبح حمل الكلام نفسه جزءًا من المسؤولية: لست منشئًا لكل ما وصل إليك، لكنك تختار ما إذا كنت ستمنحه لسانك وطريقه إلى الآخرين.

وفي السورة نفسها قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: 121] في سياق حكم الذبائح. فالتأثير هنا يصل في صورة جدال بشري له ألفاظ وحجج، لا في صورة خاطر مجرد. والآية في سياقها المحدد، فلا يُحوَّل وصف «**شياطين الإنس**» إلى لقب يُلقى على المخالفين. لكنها تكسر تصورًا ناقصًا: قد تصل الدعوة التي يحذر منها الوحي عبر كلام إنسان آخر، ويكون ميزانها ما قال الله، لا مجرد قوة العبارة أو كثرة ناقليها.

وفي قلب هذا المشهد الذي تتبادل فيه شياطين الإنس والجن القول، يأتي الحد الذي يعيد الأشياء إلى قدرها: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾. شبكة القول لا تقوم بإزاء سلطان الله، وكشف انتقال التأثير لا يدعو إلى افتتان بمساراته. الرب فوق المشهد، والوحي بين يدي العبد، ومسؤوليته تبدأ حيث يستطيع أن يختار ما يسمع له، وما يرضاه، وما يحمله إلى غيره.

وهذا هو التحول الذي يضيفه هذا الميدان إلى معرفة العدو. لم تعد الكلمة شأنًا فرديًا عابرًا، ولم تعد الخصومة مجرد حساب بين طرفين. قد يقع النزغ «بينهم»، وقد يكشف الله في موضع مخصوص مآلًا من العداوة والبغضاء، وقد تسمي السنة التحريش والتفريق، وقد ينتقل القول «بعضهم إلى بعض». ومع ذلك لا يتحول المؤمن إلى باحث عن الشيطان وراء وجوه الناس؛ يعود إلى ما جعله الله في يده.

ولهذا يبقى صدر آية الإسراء هو الحاكم على آخر المشهد كما كان حاكمًا على أوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. لم يترك الله «**البين**» بلا هدى، ولم يجعل سلامته متوقفة على أن تعرف المصدر الغيبي لكل غضب. أمرك بما تملك: أن تعبده في لسانك كما تعبده في صلاتك، وأن يكون قوله أثقل عندك من لذة الرد، وأن ترى الكلمة بما يمكن أن تفتح أو تغلق من الطريق.

فإذا نزغ العدو بين الناس، فليس انتصاره أن تعرف أنه نزغ؛ انتصاره أن تعطيه من اختيارك ما يتم به الإفساد. أما العبودية فتبدأ حين لا تجعل غضب اللحظة أكبر من أمر الله، ولا تجعل حقك مبررًا لكل لفظ، ولا تحمل إلى غيرك كل قول وصل إليك. ويبقى فوق هذا كله ما قاله يوسف بعد تاريخ طويل من النزغ والفراق: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾. فالله الذي أمر بأحسن القول قادر أن يلطف بما بين عباده، والعدو مهما عمل في «**البين**» لا يملك خاتمته.

القسم السادس

مَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ

حين يكشف الوحي للإنسان عدوًّا يوسوس ويزيّن ويعد ويصد وينزغ، قد يقع في وهمٍ معاكس للغفلة عنه: أن يجمع صور تأثيره حتى يبدو كأن له على الإنسان يدًا لا يستطيع ردها. لكن القرآن الذي كشف أفعال العدو هو نفسه الذي يضع حدَّها، فلا تتحول كثرة صور التأثير في القلب إلى صورة سيادة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: 20-21].

تجاور في الآيتين عبارتان لو انفصلت إحداهما عن الأخرى اختلّ الوزن: ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾، ثم ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ﴾. وقع الاتباع حقًّا، فلم يكن أثر العدو وهمًا، ومع ذلك نفى الله أن يكون له عليهم سلطان يقتضي اتباعهم: لا قهرًا يسلب الاختيار، ولا حجةً تجعلهم معذورين في الإجابة. دعا وزيّن، وهم اتبعوا باختيارهم؛ فالعبد يعمل بإرادته ويحاسب على اختياره، ومشيئته نفسها لا تخرج عن مشيئة الله. ثم ترتفع الآية فوق الطرفين جميعًا: ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾.

وخاتمة الآية بالحفظ تمنع القلب من أن يبقى بين داعٍ ومستجيب وحدهما. فوق الحركة كلها رب حفيظ، لا يغيب عنه كيد العدو ولا اختيار العبد. ومعرفة أن الشيطان لا يقهرك لا تردك إلى الثقة بنفسك؛ تردك إلى سؤال الحفظ من الله، لأن قدرتك على الاختيار نفسها لا تعني أنك تستغني لحظة عن ربك.

قف هنا عند ما اختاره القرآن خاتمةً للمشهد: ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾. أنت لا تُسلَّم إلى عدو ثم يقال لك: دبر نفسك. الرب الذي كشف العدو حفيظ، يعلم ما يتحرك في المشهد كله ولا يفوته شيء. وهذه المعرفة لا تعني أن العبد يترك المجاهدة؛ تعني أنه يجاهد من داخل العبودية، لا من عزلة. وكلما خفت من قوة لا تراها، تذكّر أن الذي لا تراه من كيد العدو لا يغيب عن ربك.

والحفظ هنا يعيد للقلب حجمه الصحيح. أنت مسؤول، لكنك لست رب نفسك؛ مأمور، لكنك لست موكولًا إلى قدرتك وحدها. لذلك لا يكون نفي سلطان الشيطان دعوة إلى الثقة بالنفس، بل دعوة إلى أن تعرف أين تطلب الحفظ. ما دمت لا تملك قلبك استقلالًا، فليس عجيبًا أن يكون من أعظم قوتك أن تقول لربك: احفظني.

مَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ

هذا هو الحد الذي يحفظ جميع ما سبق من غير تضخيم ولا إنكار. فالقرآن يثبت للشيطان أفعالًا كثيرة، ثم يضعها داخل حقيقة أعلى منها: عباد الله ليسوا ملكًا له، ودعوته لا تسقط عن الإنسان تكليفه، وما يصنعه من تزيين أو تخويف أو نزغ لا يصير قهرًا لمجرد أنه اشتد.

وفي خطاب إبليس قال الله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: 42]. يعيد آخر الآية المسؤولية إلى الفعل الذي عرفناه من قبل: ﴿اتَّبَعَكَ﴾. ليس الإنسان صفحةً يكتب فيها عدوه ما يشاء؛ ثمة دعوة، وثمة موقف من الدعوة، ومن هنا يبقى التحذير من الشيطان تكليفًا ذا معنى لا وصفًا لمصير محتوم.

وفي سورة النحل لا يذكر القرآن نفي السلطان مجردًا، بل يضع في الجهة المقابلة صورة المؤمن: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 99-100]. فموضع الأمن في الآية ليس خبرةً متفوقة بأبواب العدو، وإنما إيمان بالله وتوكل عليه؛ وفي الجهة الأخرى تولٍّ للشيطان. بذلك ينتقل ثقل المشهد من مقدار قرب العدو إلى موضع قلب العبد: على من يتوكل، ولمن يجعل الولاية؟

والتوكل هنا ليس زينة تأتي بعد أن تتعلم كل أسباب الحماية؛ هو جزء من أصل الأمان في الآية. المؤمن لا يقول: عرفت الحيل فنجوت، بل يعرف من عدوه ما علّمه الله، ثم يعتمد بقلبه على ربه. قد تنقص معرفتك بتفصيل المدخل، وقد تفاجئك نفسك، لكن باب التوكل لا ينتظر اكتمال خبرتك. ما دمت عبدًا، فحاجتك إلى ربك أسبق من حاجتك إلى الإحاطة بعدوك.

والتوكل لا يلغي فعلًا أُمرت به؛ بل يحرره من وهم أن نتيجته معلقة بك وحدك. تجاهد، وتغلق بابًا تعلم خطره، وتستعيذ، وتذكر، وتطيع، ثم لا تجعل قلبك يسكن إلى هذه الأسباب نفسها. تسكن إلى من جعلها أسبابًا، ومن بيده أن يحفظك حين تعرف وحين لا تعرف.

ويظهر الحد أوضح ما يكون بعد أشد مشاهد الحملة اتساعًا. ففي الإسراء جاء الاستفزاز والحشد والمشاركة والوعد، ثم أعقب ذلك كله قول الله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: 65]. ما أوسع ما سبقها من صور الحركة، وما أقصر ما ردّها إلى قدرها: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

وهذه الجملة تغيّر موضع الخوف كله. المؤمن لا يقف وحده أمام قوة غيبية يحاول أن يحيط بتفاصيلها قبل أن ينجو منها؛ له رب يملك العدو والعبد والطريق والمآل. فإذا كشف الوحي اتساع الحملة لم يكن غرضه أن يمتلئ القلب بها، بل أن يعرفها وهو مستند إلى من قال: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

وقول الله ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ ليس جملةً لتسكين الخوف بعد أن امتلأ القلب بصور الحملة؛ إنه إعادة ترتيب للمشهد كله. إذا كفاك ربك وكيلًا، فلست مطالبًا أن تحمل الكون بوعيك، ولا أن تتعقب كل خيط خفي كي تأمن. عليك ما كلفك الله به من إيمان وطاعة واستعاذة ومجاهدة، وما وراء ذلك في كفاية من لا يعجزه شيء.

وهذا من أجمل ما يحرر القلب من الإفراط في الانشغال بالعدو. لست في حاجة إلى أن تعرف كل ما يفعله حتى يطمئن قلبك؛ يكفي أن تعرف من وكيلك. وكل معلومة عن الشيطان لا تنتهي بك إلى هذا الموضع قد تتحول من كشف نافع إلى حمل زائد، أما الوحي فيكشف ثم يردك سريعًا إلى ربك.

لذلك فالمبالغة في الخوف من الشيطان ليست زيادةً في اتخاذه عدوًّا. قد تنقلب إلى خطأ في الوزن نفسه: يعطي العبدُ المخلوقَ من القدرة في شعوره ما نفاه عنه خالقه. والقرآن يريد يقظة تعرف الخطر، ثم تضعه حيث وضعه الله؛ تحت الحفظ والوكالة، لا فوقهما.

بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا

وحين يوضع سلطان العدو في حدّه، ينفتح باب آخر من الدقة: ليس اسم الشيطان تفسيرًا جاهزًا لكل شر يمر بالإنسان. القرآن نفسه يفرق بين مصادر متقاربة الأثر، ويعلمنا أن تشابه الظاهرة لا يكفي وحده لتعيين صاحبها.

قال يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: 18]، وقال الله عن قوم بعد أن تبين لهم الهدى: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ [محمد: 25]. اللفظ واحد: التسويل، لكنه نُسب هنا إلى النفس وهناك إلى الشيطان. فلو كان مجرد الإحساس بتحسين الخطأ كافيًا لمعرفة مصدره، لما علّمنا القرآن هذا التفريق.

ويقول الله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: 16]. والوسوسة التي عُرفت في مواضع من فعل الشيطان تُنسب هنا إلى النفس. وفي باب آخر يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: 26]. للنفس تسويلها، وللهوى اتباعه، وللشيطان من الوسوسة والتسويل ما أثبته النص؛ والعبد في جميع ذلك مخاطَب بأن يزن ما يعرض له بهدى الله.

هذا التفريق لا يدفع الإنسان إلى محاولة فرز كل خاطر في داخله: أهذا من النفس أم من الهوى أم من الشيطان؟ تلك المعرفة ليست شرطًا للطاعة. حكم الله في الطريق قد يكون بينًا قبل أن تعرف من أين تحرك الميل إليه أو عنه. وما يحتاجه العبد في لحظة الاختيار أسبق من بطاقة المنشأ: ماذا قال الله، وماذا سأختار؟

وبذلك تتحرر المسؤولية من عذرين متقابلين. لا يحمل الإنسان كل شر على عدوه حتى يبرئ نفسه، ولا ينكر فعل العدو الذي أخبر الله به حتى يجعل المعركة نفسًا وهوى فقط. يعطي كل باب القدر الذي أعطاه النص، ثم يحمل نفسه ما حملها الله من قول وعمل واختيار.

وهذا من أهدأ ثمار معرفة حد السلطان: جهلُك بمصدر خاطر بعينه لا يجعلك أعزل أمامه. قد لا تعرف من أين بدأ، لكنك تعرف إلى أي جهة يدعوك، وتعرف ما كشف الله عن تلك الجهة. فلا تصبح معرفة الغيب شرطًا للامتثال.

إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا

بعد كل ما كشفه القرآن من صور العداوة تأتي كلمة قد تبدو لأول وهلة على خلاف ما امتلأ به المشهد: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾. جاءت في سياق القتال والولاية، بعد قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 76]. سمّاه كيدًا، فلم يُلغ خطره، ثم أعطاه وزنه: ضعيفًا.

الضعف هنا لا يحول العدو إلى شيء لا يُحذر منه، وإنما يمنع أن يتحول الحذر إلى رهبة تمنحه في القلب منزلة الغالب. قد يكيد، وقد ينجح كيده فيمن يستجيب له، لكن الكيد نفسه واقع تحت سلطان الله، وليس قوةً مستقلة تصنع النتائج بعيدًا عن إذنه.

وفي سورة المجادلة يرسم القرآن الحركة كاملة في آية واحدة: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: 10]. سمّى النجوى المنهيَّ عنها في هذا السياق من الشيطان، وبيّن غايتها: ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ثم لم يترك الحزن يكبر حتى يصير سلطانًا: ﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، ثم نقل القلب إلى موضعه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

ليس المهم هنا أن الحزن لا يقع؛ فقد ذكر النص إرادته. المهم أن إحساس العبد بالأذى لا يساوي ملك العدو للضر، وأن ما يريده الشيطان لا يصبح نافذًا خارج إذن الله. مرة أخرى يكشف القرآن الفعل ثم يكشف الحد، حتى لا تبتلع صورة اللحظة الحقيقة الأعلى منها.

ثم تأتي آية أخرى فتحمي القلب من ثقةٍ معاكسة بالنفس. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾ [النساء: 83]. فكما أن نفي سلطان الشيطان يمنع تضخيمه، ردُّ النجاة إلى فضل الله ورحمته يمنع تضخيم الإنسان. ليست المعادلة عدوًّا ضعيفًا أمام ذاتٍ مكتفية بنفسها؛ هي عبدٌ مسؤول محتاج، وربٌّ يتفضل ويرحم ويحفظ ويُتوكل عليه.

وهنا تبلغ معرفة العدو موضعها الصحيح في القلب. لا تتولد منها ثقة بالنفس لأنها عرفت حيله، ولا خوفٌ منه لأنه كثرت وسائله؛ تتولد منها ثقة بالله مع مسؤولية أشد. إذا دعاك فدعوته ليست قهرًا، وإذا خوّفك فخوفك لا يبدل سلطان ربك، وإذا زللت فزلتك لا تثبت أن العدو ملكك. الطريق إلى الله لم يصر ملكًا لغيره.

ولهذا تتكرر في آيات السلطان كلمات لا تتعلق بالشيطان بقدر ما تتعلق بالله: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. كأن القرآن كلما صغّر قدرة العدو ملأ الموضع الذي فرغ منه بمعرفة الرب، حتى لا يتحول نفي الخوف من الشيطان إلى إعجاب بالإنسان.

ومن عرف هذا لم يعد محتاجًا أن يجعل قوة ما يشعر به دليلًا على قوة من يدعوه. قد يكون الخاطر ملحًّا، والخوف شديدًا، والعادة راسخة، والخصومة مشتعلة؛ ومع ذلك تبقى هذه كلها أوصافًا للحظة، لا حكمًا على السلطان. الذي كشف لك عدوك هو نفسه الذي قال: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

فالعدو حقيقي، وكيده حقيقي، ومسؤوليتك حقيقية؛ لكن الحقيقة الأكبر التي ينبغي أن يبقى عليها القلب هي أن السلطان لله. ومن هنا لا تنتهي معرفة الشيطان عند تقدير قوته، بل عند معرفة من فوقه وفوقك وفوق الطريق كله:

﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

القسم السابع

فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا

ليس للعدو سلطانٌ يقهر العبد، لكن هذه الحقيقة لا تردّ الإنسان إلى نفسه، تردّه إلى ربّه. فالذي لا يملكك لا يزال عدوًّا، وأنت الذي تملك الاختيار لا تستغني لحظةً عن هداية الله وحفظه. ولهذا يأتي الأمر القرآني بعد إعلان العداوة فعلًا لا معلومة: ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾.

ولا تبدو هذه العداوة في حياة المؤمن بكثرة اشتغاله بالشيطان، بل بسرعة رجوعه إلى الله كلما نازعه العدو: يعود إلى البصيرة حين تمسها الغشاوة، وإلى الاستعاذة حين يقع النزغ، ويقطع ما أمره النبي صلى الله عليه وسلم بقطعه من الوسوسة، ويقيم عبادته لله حتى تكون حياته في الجهة التي أبى إبليس أن يقوم فيها، ثم إذا زلّ لم يجعل للزلة سلطانًا على رجائه في ربّه.

تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201].

تضع الآية المتقين في ميدان العداوة نفسه: قد يمسهم طائف، فلا تكون التقوى حياةً لا تعرض فيها منازعة، وإنما يظهر أثرها فيما يقع بعد المس: ﴿تَذَكَّرُوا﴾. ثم لا يطول الطريق بين التذكر والنتيجة: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾.

كأن الخطر في لحظة الطائف أن تضيق الرؤية حتى تملأها صورة واحدة: رغبة عاجلة، أو خوف حاضر، أو غضب يريد أن يتكلم. والتذكر يعيد إلى القلب ما يعرفه من هدى الله حتى يرى الشيء مرة أخرى بميزانه الصحيح. لا يصنع حقيقة جديدة، يرد الحقيقة التي غابت عن موضع القرار.

وهذا يفسر لماذا يكون التذكر من أعمق صور المقاومة. فالإنسان قد يعرف الحكم ثم تشتد اللحظة حتى يضعف حضوره، ويعرف الوعد ثم يكبر الخوف حتى يحجبه، ويعرف مآل الكلمة ثم يأتيه الغضب فيختصر المشهد في لذة الرد. فإذا عاد ما كشفه الله إلى القلب، عادت معه البصيرة.

ولا تجعل الآية طريق النجاة متوقفًا على تتبع الطائف حتى يعرف العبد كيف بدأ ومن أين دخل؛ الذي أبرزته هو التذكر ثم عودة الإبصار. فاليقظة التي يعلمها القرآن لا تجعل العدو مركز النظر، بل ترد القلب إلى ما ينبغي أن يراه من هدى ربّه.

ولهذا يسبق هذه الآية مباشرة قول الله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 200]. فالبصيرة التي تعود بالتذكر ليست يقظةً مستقلة عن الله، بجوارها باب الالتجاء إليه، وإلى اسميه اللذين يختمان الأمر: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتَهِ

حين يقع النزغ لا يطلب القرآن من العبد أن يشتغل طويلًا بالعدو الذي نزغه، ينقله في كلمة واحدة إلى من يملك الحماية: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾. وقال سبحانه في السياق نفسه من دفع السيئة بالتي هي أحسن: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: 36].

الاستعاذة في أصلها عبودية: إقرار بالحاجة، والتجاء إلى الله، وردّ للقلب من المخلوق إلى ربّه. وقد عرفت أن كيد الشيطان ضعيف وأن السلطان لله، فجاءت ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ فعلًا يوافق هذه الحقيقة: أهرب من عدو لا يملك من أمري شيئًا استقلالًا إلى من بيده الملك كله، وأطلب الحفظ ممن بيده الحفظ.

وقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: 97-98]. تتكرر كلمة الرب حول ذكر الشياطين: ﴿رَبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾، ثم ﴿أَعُوذُ بِكَ رَبِّ﴾. حتى الدعاء الذي يذكر همزاتهم وحضورهم يجعل الرب هو الاسم الذي يملأ اللسان والقلب.

وتأتي السنة فتعلّم أن بعض أبواب الوسوسة لا يُغلق بكثرة الاسترسال معها، بل بقطع السلسلة في موضعها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتَهِ» [البخاري: 3276؛ مسلم: 134].

في هذا التسلسل الذي سمّاه الحديث لا يأمر النبي صلى الله عليه وسلم صاحبه أن يربح جولةً أخرى من الأسئلة، بل أن يستعيذ بالله وينتهي. فليس كل ما يطرأ على الذهن مطالبًا صاحبه بأن يمنحه مزيدًا من

الدوران، وقد تكون طاعة النبي صلى الله عليه وسلم هنا أن يقطع ما أُمر بقطعه، لا أن يجعل الوسواس مشروع بحثٍ لا ينتهي.

وحين شكا عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه أن الشيطان حال بينه وبين صلاته وقراءته يلبسها عليه، قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خِنْزَبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْهُ، وَاتْفُلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا». قال عثمان: «فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَهُ اللَّهُ عَنِّي» [مسلم: 2203].

هذه الخاتمة تختصر روح المواجهة: فعل العبد ما علّمه النبي صلى الله عليه وسلم، لكن الفاعل الذي استقر في قلبه عند النتيجة هو الله: «فَأَذْهَبَهُ اللَّهُ عَنِّي». ليست المقاومة استقلالًا عن الرب، بل عبودية له في لحظة المنازعة.

وما أطيب نسبة عثمان النتيجة إلى صاحبها: «**فأذهبه الله عني**». فعل هو ما أُمر به، لكن قلبه لم يكتب القصة بصيغة: انتصرت على خنزب. انتهت عند الله. وهذا نموذج صغير لما ينبغي أن تصنعه المعرفة كلها: تعمل، وتجاهد، ونتعوذ، ثم ترى الفضل من فوق عملك.

اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي

غير أن أجمل صور اتخاذ العدو عدوًّا ليست كلها عند لحظة الشعور به. قد يكون العبد في أشد المواقف مخالفةً لإبليس وهو لا يفكر فيه أصلًا؛ لأنه منشغل بالله.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي، يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ، أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ» [مسلم: 81].

ترجع القصة هنا إلى أصلها كله في فعل واحد. أُمر إبليس بالسجود فأبى واستكبر، ويُقرأ على ابن آدم موضع سجود فيخرّ لله ساجدًا. لا يحتاج المؤمن في تلك اللحظة إلى خطاب طويل عن عداوة الشيطان؛ سجوده نفسه جواب. ذاك قال بفعله: لن أسجد، وهذا يضع جبهته لله.

وهنا يبلغ ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ معنى لا تصنعه المراقبة: أن تقيم في صف العبودية. فالعدو الذي أراد أن يصرفك عن ربك لا يحتاج أن يصبح مركز يومك حتى تخالفه؛ يكفي أن يكون الله مركز يومك.

وحين يأوي المؤمن إلى فراشه فيقرأ آية الكرسي، جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن الشيطان قال له: «إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ... فَإِنَّهُ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ»، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ» [البخاري: 2311].

وآية الكرسي نفسها لا تجعل الشيطان موضوعها، تفتح القلب على الله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. فيكون من أبلغ وجوه الحماية من العدو أن يمتلئ العبد بمن يحميه. لا يحتاج أن ينام وهو يستحضر عدوه، ينام وقد قرأ كلام ربّه، وعليه «**مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ**».

وتدخل هذه العبودية في أبسط تفاصيل اليوم. إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان لأصحابه: «لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ» [مسلم: 2018]. وإذا استيقظ من نومه فذكر الله ثم توضأ ثم صلى انحلت العقد التي عُقدت عليه، وأصبح نشيطًا طيب النفس. أفعال قصيرة، لكن اتجاهها واحد: ذكر، ووضوء، وصلاة، وبيت يبدأ باسم الله.

وبذلك لا تتحول الحياة إلى سلسلة إجراءات ضد الشيطان، تتحول إلى عبادة لله، ويأتي انكفاء العدو أثرًا من آثارها. يسجد العبد لله فيعتزل الشيطان، ويقرأ كلام الله فيُحفظ، ويذكر الله في بيته فلا يجد العدو فيه ما كان يطلب. كلما عظم حضور الرب صغر نصيب العدو من القلب.

وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ

ومع التذكر والاستعاذة والسجود والذكر قد تقع الزلة. ولو جعلت معرفة العدو المؤمن بعد الزلة أشد انشغالًا به من رجوعه إلى ربّه لانقلبت المعرفة عن غايتها. وهنا يفتح الوحي بابًا آخر: أن تُرى الزلة في ضوء عفو الله، لا أن تتحول إلى حجاب عن الرجوع إليه.

قال الله فيمن تولوا يوم أُحد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 155].

لا تخفف الآية شيئًا من الحقيقة: هناك استزلال من الشيطان، وهناك ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾، فلا يُمحى أثر العدو ولا تُمحى مسؤولية الإنسان. ثم لا تسمح الآية لأيٍّ منهما أن يكون خاتمتها: **﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾**.

هذه الجملة ليست تفصيلًا بعد ذكر الزلة؛ هي التي تعيد وزن المشهد كله. ما وقع لا يُنكر، لكن الماضي الذي استزلك فيه العدو لا يملك وحده أن يحدد ما يكون بينك وبين الله بعده. قبل أن يطول نظر القلب إلى سقوطه، يخبره ربّه بعفوه، ثم يعرّفه بنفسه: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

ولذلك لا تجعل معرفتك بالاستزلال تحبس قلبك عند تفاصيل السقوط. النص نفسه لم يتركك هناك؛ قال: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾. فكما تتعلم من الزلة موضع ضعفك، تعلّم من العفو من هو ربك. القلب الذي يعرف العدو ولا يعرف سعة العفو قرأ نصف المشهد فقط.

وقد يكون بعد بعض الزلات من الصعب على الإنسان أن يصدق أن الباب ما زال مفتوحًا كما كان قبلها. هنا لا يطلب منه الوحي أن ينكر ما فعل؛ يطلب منه أن يضيف إلى اعترافه حقيقةً أخرى قالها الله: العفو. الذنب لا يصير صغيرًا، لكن الله يبقى أكبر من أن تجعل ذنبك حدًّا لرحمته إذا رجعت إليه.

وهذا هو المعنى الذي حملته قصة آدم من أولها: وقع العصيان، ثم قال الله: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: 122]. عودة هذه الآية هنا لا تعيد قصة السقوط، بل تكشف ما ينبغي أن يلي الزلة: الرجوع إلى الله الذي يجتبي ويتوب ويهدي. فلا تجعل الاستزلال بابًا إلى البعد، ولا تجعل معرفتك بأن للشيطان أثرًا في الطريق حجابًا بينك وبين من يفتح باب الرجوع.

وقد تقع الزلة فعلًا بعد طاعة ومجاهدة؛ لكنها لا تكون نهاية الطريق إذا رجعت إلى الله. وليس انتصار المؤمن أن يكتب لنفسه تاريخًا بلا سقوط، وإنما أن يعرف إلى من يرجع إذا سقط.

وعند هذا الموضع تتلاقى المشاهد من غير أن تفقد اختلافها: غشاوة يعيد التذكر بعدها البصر، ونزغ يرد العبد إلى ربّه، ووسواس لا يملك أن يفرض عليه استمرار الدوران، وسجود يقيمه في الجهة التي أبى إبليس أن يقف فيها. وحتى تفاصيل البيت والنوم لا تجعل حياته مرهونة بمراقبة العدو؛ يدخلها ذكر الله في نسيج العبودية. ثم إذا وقعت الزلة بقي باب العفو أوسع من أن تغلقه لحظة الاستزلال.

فاتخاذ الشيطان عدوًّا لا يعني أن يزداد حضوره في قلبك كلما ازدادت معرفتك به. تمام العداوة أن يقل نصيبه منك: لا يأخذ قرارك إذا دعا، ولا لسانك إذا نزغ، ولا وقتك إذا وسوس، ولا عبادتك إذا شوّش، ولا رجاءك إذا استزلك.

وكلما نقص نصيبه كبر في القلب ما ينبغي أن يكبر: هدى الله، واللجوء إليه، والسجود له، وذكره، ورجاء مغفرته. عندئذ لا تصبح معرفة العدو خاتمة المعرفة؛ تصبح طريقًا أسرع إلى الرب.

ولهذا لا تكون الصورة الباقية صورة الشيطان وهو يعتزل باكيًا، ولا صورة العبد وهو ينجح في المقاومة. تبقى الكلمة التي وضعها الله بعد زلة عباده نفسها، كلمةً ترد الفضل والرحمة والنهاية إليه:

﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

القسم الثامن

وَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ

من رحمة الله بالإنسان أن يكشف له نهاية الغرور وهو ما يزال في زمن الاختيار. لا يتركه حتى يجرب كل وعد، ويبلغ كل مآل، ثم يعرف بعد فوات الرجوع أيّ الطريقين كان حقًّا. ينقل إليه الوحي كلمة النهاية قبل أن تنتهي حياته، حتى تدخل العاقبة في وزن البداية.

ولهذا لا تأتي خاتمة العداوة بمعلومة جديدة عن وسيلة من وسائل الشيطان، تأتي بانكشافه. الذي زيّن ووعد وخوّف ودعا لا يبقى في آخر الطريق بالصورة التي ظهر بها في أوله. يسقط الضمان، وتنكشف الصحبة، ثم ينطق صاحب الوعد نفسه بالحقيقة التي أخبر الله بها من قبل. وعندئذ لا يعود المقصود أن تعرف الشيطان أكثر، بل أن يصبح كشف الله أصدق في قلبك من كل ما يمكن أن يملأ اللحظة.

وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 48].

تكفي المسافة بين عبارتين في الآية لتكشف طبيعة الصحبة كلها: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾، ثم ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ﴾. في أول المشهد زيّن، وطمأن، وأدخل نفسه في صورة القوة والأمان؛ فلما تراءت الفئتان لم يبق من ذلك إلا النكوص والبراءة. ما تغيّر في آخر الطريق ليس الحقيقة، بل القناع الذي كان يحجبها.

تأمل وزن العبارة قبل انكشافها: **﴿إِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾**؛ كلمة أمان في لحظة خوف. ثم لا يفصل بينها وبين **﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ﴾** إلا ظهور الحقيقة. هذه هي مشكلة الوعد الذي يوزن بصوته قبل مآله. بعض الكلمات لا تكشف كذبها لحظة سماعها؛ الوحي هو الذي ينقل لك نهايتها قبل أن تدفع ثمن تصديقها.

وفي المثل الذي ضربه الله في سورة الحشر يختصر القرآن المعنى حتى يكاد يبقى منه الفعل وعاقبته فقط: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ

الْعَالَمِينَ ۝ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر: 16-17]. دعوةً إلى الكفر، ثم براءةً ممن استجاب. لم يحمل الداعي عن المستجيب تبعة استجابته، كما أن استجابة الإنسان لا تبرئ الداعي من جريمة الإغواء؛ فالداعي آثم بدعوته، والمستجيب مسؤول عن استجابته.

ثم ينقل القرآن النظر إلى الإنسان نفسه حين تنكشف له قيمة الصحبة بعد فواتها: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: 27-29].

الموجع في الندم أن السبيل لم يكن غائبًا: ﴿مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾، والذكر قد جاءه: ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾. لكن صحبةً أخرى غلب حضورها في زمن القرار، ثم ظهر عند النهاية ما لم يظهر في أولها: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾.

وتتكامل الصور الثلاث في كشف الخذلان من جهاته: ضمان ينقلب براءة، ودعوة يتخلى صاحبها عن المستجيب، وصحبة يراها الإنسان عند الحسرة على غير الصورة التي رآها بها حين اختار. ومن رأى هذا المآل في كلام الله لا يسمع كلمة العدو في أول الطريق وحدها بعد اليوم.

فبعد انكشاف وعد العدو، لا يبقى القلب واقفًا عند خذلانه؛ بل يعود إلى الله، ويكون آخر ما يستقر عليه القلب: الاستعاذة به، والثقة بوعده والرجوع إليه.

ثم يأتي المشهد الذي لا يبقى بعده زمن للعمل: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: 22].

أول ما يغير وقع الآية هو زمانها: ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾. انتهى زمن أن يُختبر الوعد، أو أن يرجع المستجيب، أو أن يقول: سأرى أين ينتهي هذا الطريق. ثم يتكلم الشيطان، فلا يأتي بزينة جديدة؛ يبدأ من الحقيقة التي كانت قائمة قبل أن يدعوهم أصلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾.

تلك الكلمة التي افتتح الله بها ميزان العداوة - ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ - ينطق بها العدو نفسه بعد أن قُضي الأمر. ثم يضع وعده إلى جوارها بلا اسم جميل ولا أمنية ولا تخويف: ﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾. ما سمّاه الله في زمن الاختيار غروراً يسمّيه صاحبه بعد النهاية إخلافًا.

وهنا تبلغ رحمة الوحي موضعًا يهز القلب: الآية التي لا يستطيع أصحاب المشهد أن ينتفعوا باعترافها يومئذ أنزلها الله لتسمعها أنت اليوم. أسمعك خطاب ما بعد القضاء وأنت ما تزال في دار العمل. قبل أن يأتي يوم يقال فيه ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾، تستطيع أن تجعل اعتراف العدو نفسه شاهدًا في قرارك الآن.

قف عند هذا الفرق: هم يسمعون الاعتراف ولا يملكون تحويله إلى قرار جديد، وأنت تسمعه والباب مفتوح. ما صار لهم حسرة يمكن أن يصير لك هداية. هذه وحدها كافية لأن تقرأ الآية لا تخبر عن كلام سيقال، بل كرحمة سبقت يومك.

حين يقول الشيطان هناك: ﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ لا يزيدهم العلم شيئًا؛ زمن الاختيار انتهى. أما أنت، فكل مرة يلمع لك عاجل، أو يخوفك مستقبل، أو يدعوك طريق، تستطيع أن تدخل هذه الكلمة في الميزان قبل أن تستجيب. الوحي نقل لك اعتراف ما بعد النهاية كي تستخدمه قبل النهاية.

ثم تسقط الأعذار مع الأقنعة. ما كشفه الله لعباده عن حد سلطان الشيطان ينطق به هو بعد فوات العمل: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾. لم ينكر الدعوة، لكنه رد الاستجابة إلى أصحابها. ولم يعد في إمكان أحد أن يجعل وجود الداعي عذرًا يلغي اختياره: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾.

ثم تسقط الصحبة نفسها: ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾. الذي وعد لا ينقذ، والذي دعا لا يحمل؛ فلا يملك هو إغاثة من أجابه، ولا يملكون هم إغاثته. لقد بقي من الوعد بعد انكشافه شيء واحد: أنه لم يكن يستحق أن يزاحم وعد الله لحظة واحدة.

لكن ذروة الآية ليست في أن الشيطان كذب فقط. لو انتهى القلب عند كذبه لبقي العدو هو مركز المشهد. الحقيقة الأعظم هي التي بدأ بها اعترافه: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾. يسقط وعد العدو، فيرتفع في القلب صدق الرب.

وبعد هذا الاعتراف الطويل، لا يحتاج القلب إلى مزيد من وصف الشيطان؛ يحتاج أن يخرج من صوته. لذلك يكون التحول إلى سورة الناس تحولًا في مركز النظر نفسه: من قول العدو عن نفسه إلى قول الله لعبده ماذا يقول، وإلى من يلتجئ.

هنا يتغير إيقاع الخاتمة. لم يعد السؤال: ماذا قال الشيطان؟ بل: ماذا تقول أنت؟ ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾. ولم يعد مركز المشهد صاحب الوسوسة، بل من تستعيذ به: ﴿بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَهِ النَّاسِ﴾. كأن الكتاب كله، بعد أن كشف العدو بما يكفي، يطلب من القلب أخيرًا أن يرفع نظره عنه.

وهذه هي اللحظة التي يلتقي فيها زمانان: هناك يتكلم الشيطان ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾؛ وأنت تسمع كلامه قبل أن يُقضى الأمر في حقك. ما يزال باب الاختيار مفتوحًا، وما يزال الرجوع ممكنًا، وما يزال وعد الله أمامك قبل أن يصير ما وعد به مشاهدةً لا ينفع معها إيمان جديد.

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ

ولهذا لا يصح أن يكون صوت الشيطان - ولو كان اعترافًا يهدم غروره - هو الصوت الأخير. هناك قال بعد فوات العمل ما قال؛ وهنا يقول الله لعبده وهو ما يزال في زمن العمل: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَهِ النَّاسِ ۝ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: 1-6].

قبل أن تسمّي السورة الشر الذي تستعيذ منه، تعرّفك بمن تستعيذ به. تتكرر نسبتك إلى الله ثلاث مرات قبل ذكر الوسواس: ﴿رَبِّ النَّاسِ﴾؛ فأنت مربوب مفتقر إلى تدبيره وحفظه، ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾؛ فأنت وعدوك في ملكه لا تخرجان عنه لحظة، ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾؛ فإليه وحده تتوجه بالعبادة والخوف والرجاء والالتجاء. قبل أن تعرف أين يقع الشر، يثبت الوحي في قلبك أين تقف أنت: عبدٌ لربك، في ملكه، متوجه إليه وحده.

وتأتي الاستعاذة في آخر المصحف على خلاف ما قد يصنعه الخوف في النفس. الخوف يملأ العين بالمخوف، أما الوحي فيملأ صدر السورة بالله، ثم يضع الشر بعد ذلك في موضعه: شيء تستعيذ منه بمن هو ربك وملكك وإلهك. لا يتقابل الطرفان في قلب المؤمن على قدر واحد؛ أحدهما عدو مخلوق يُستعاذ من شره، والآخر رب كل شيء ومالكه وإلهه.

وهنا يكتمل معنى ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ من غير أن يصبح الشيطان مركز الحياة. تعرف كذب وعده فلا تصدقه، وتعرف خذلانه فلا تتخذه صاحبًا، وتعرف حد سلطانه فلا تسلّمه مسؤوليتك، ثم لا تقف عند هذه المعرفة كلها؛ تقول: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾. المعرفة بالعدو تبلغ غايتها حين تزيدك معرفةً بموضعك من ربك.

جاء إعلان العداوة في سورة فاطر تحت كلمة سبقتها وعلت عليها: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾. وفي آخر المشهد ينطق العدو نفسه: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾. وبين الكلمتين تقع حياة يستطيع الإنسان فيها أن يختار أي الوعدين يصدق، وأي الطريقين يسلك، وإلى من يفر إذا نازعه عدوه.

فإذا بقي في القلب من هذا كله معنى واحد، فليس أن عدوك كثير الحيل؛ بل أن ربك لم يتركك له. عرّفك بعداوته قبل أن يغرك، وكشف لك مآل دعوته قبل أن تصل إليه، وحدّ لك سلطانه، وفتح لك أبواب التذكر والاستعاذة والتوبة، ثم أسمعك اعترافه الأخير وأنت ما تزال قادرًا على ألا تكون من المخاطَبين به يوم القيامة.

عندئذ يصغر في القلب ما ينبغي أن يصغر، ويعظم ما ينبغي أن يعظم: ليس وعد الشيطان في كفة ووعد الله في كفة متساوية؛ ذاك غرور يعترف صاحبه بإخلافه، وهذا وعد الحق من رب العالمين. واتخاذ العدو عدوًّا لا يعني أن يملأك حضوره؛ غايته أن يزداد قلبك حفظًا لعبوديته لله، وثقةً بوعده، وفرارًا إليه.

ولا يليق أن تبقى آخر كلمة للعدو وهو يقول: ﴿وَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾. آخر الكلمة لله، وآخر حركة للقلب إليه:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَهِ النَّاسِ﴾.

سلاسل مركز الدراسات والبحوث

السلاسل التي ينتجها المركز

- سلسلة العلوم التطبيقية
- **سلسلة موازين القرآن** — السلسلة الحالية
- سلسلة مفاهيم الفكر المعاصر
- سلسلة حقوق وفضائل
- سلسلة طبائع النفس